روح القرآن الكريم

تفسير

جزء الشورى

الجزء الخامس والعشرون

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

توزيع
دار العلم للملايين

A
297.122
R933r
pt.25

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من القرآن.

وهذا الجزء الخامس والعشرون يبتدىء بالآية ٤٧ من سورة فصلت وينتهي بآخر سورة الجاثية، ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملةً في كل جزء تركنا تفسير الآيات من سورة فصلت للجزء الرابع والعشرين وبدأنا تفسير هذا الجزء من أول سورة الشورى وسميناه جزء الشورى تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء .

ولا بد من أن نشير إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفاسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول تسمية الأجزاء بجزء عم، وجزء تبارك إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل سورها.

Gift of Kreidieh 53340

إهداء عن روح المرحوم الحاج
ابراهيم سعيد كريدية

روح القرآن الكريم

تفسير
جزء الشورى

الجزء الخامس والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

LAU LIBRARY - BEIRUT
04 DEC 2003
RECEIVED

دار العلم للملايين
مؤسّسة ثقافيّة للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٦٦٦ ٣٠٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الرابعة
تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠٠١

سورة الشورى

سميت هذه السورة باسم الشورى لإرشاد المؤمنين إلى أن يعتمدوا نظام الشورى في أمورهم العامة والخاصة.

تبتدىء السورة بالتنويه بالقرآن الذي أوحاه اللّه إلى رسوله محمد ﷺ، كما أوحي للرسل من قبله، هذا القرآن هو هداية للبشر، وإنذار لأهل مكة ومن حولها من القرى من هول يوم القيامة حيث يحاسب الناس بما عملوا ويتقرر مصيرهم إما إلى نعيم الجنة أو إلى عذاب النار.

وفي هذه السورة دعوة إلى إفراد اللّه بالعبادة وترك عبادة غيره من أصنام وغيرها، فهو سبحانه يحيي ويميت، وهو خالق السماوات والأرض، كما خلق الإنسان والأنعام أزواجاً لتتكاثر ويستمر بقاؤها.

وهذه السورة تبين كذلك وحدة الرسالة الإلٰهية التي جاء بها رسل اللّه، ولكن الناس اختلفوا في مضمونها فأرسل اللّه رسوله محمداً برسالة توفق بين المتخالفين وتظهر حقيقة الدين الذي حادوا عنه.

وهذه السورة تظهر أيضاً قبول اللّه توبة التائبين، والحكمة في توزيع الرزق بتدبير محكم، مع عرض لبعض مظاهر القدرة الإلٰهية، وأسباب المصائب التي تجتاح الإنسان، وتذكر هذه السورة بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون لنيل رضاء اللّه ومنها صفة الشورى.

وتشير السورة إلى أن اللّه يهب لمن يشاء من الناس ذكوراً ويهب آخرين إناثاً كما يجعل من يشاء عقيماً.

ثم يختم اللّه السورة ببيان أنواع الوحي الإلٰهي الذي خص به رسله مع التنويه بشأن القرآن ورسوله محمد ﷺ.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكية ، وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ
﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ
الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

شرح المفردات

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن من جلال اللّٰه وعظمته .

يُسَبِّحُون بحَمْد رَبِّهِمْ : ينزهون ربهم عما لا يليق بجلاله متلبسين بحمده .

اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِم : اللّٰه رقيب على أعمالهم .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بوكيل : أمرهم ليس موكولاً إليك .

أُمَّ القُرَى : مكة المكرمة .

يَوْمَ الْجَمْع : يوم القيامة .

لا رَيْب فيه : لا شك في وقوعه .

فَريقٌ في السَّعير : فريق في عذاب النار المستعرة .

يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ
﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى
اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ
يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

شرح المفردات

وَلِيٍّ : محب وصديق وناصر .

إِلَيْه أُنيبُ : ارجع إلى اللّٰه واعتمد عليه .

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض : خالق السماوات والأرض ومبدعهما .

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْواجاً : جعل من جنسكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً .

الأَنْعَام : الإبل والبقر والغنم .

يَذْرؤكم : يخلقكم ويكثركم بسبب هذا الازدواج .

مقاليد السموات والأرض : خزائنها ومفاتيحها .

يبسط : يوسع .

يَقْدر : يضيق ويقتّر .

سُورَةُ الشُّورَىٰ

ايضـــاح و دروس

بيِّن القـرآن في مستهل هـذه السورة أن اللَّه سبحـانـه أوحى لـرسـولـه محمـد ﷺ من الشريعـة مثل مـا أوحى إلى الأنبياء من قبله من الـدعوة إلى توحيده ، وإفراده بالعبادة ، وتمجيد عظمته :

﴿ حمّ . عسّقّ . كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ . لَهُ مَا فِي السَّمَـاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُـوَ العَلِيُّ العَظِيمُ . تَكَـادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِن وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُون بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١ - ٥) .

﴿ حمّ . عسّقّ ﴾ ذكـر اللَّه هذه الأحـرف للتنبيـه على إعجـاز القـرآن المؤلف من هـذه الحـروف وغيـرهـا من حـروف الهجـاء التي يتكلم بهـا النـاس ، ولكن عجزهم عن الإتيـان بمثل هـذا القرآن دليـل على أنه وحي إلٰهي .

﴿ كَـذَلِكَ يُـوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّـذِين مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي بمثل مـا جاء في هـذه السورة من المعـاني التي أوحاهـا اللَّه إليك يـا محمد من الـدعوة إلى توحيد اللَّه وعبادته والدعوة إلى الهدى والحق ، أُوحي إليك في غيـرها من سـور القرآن ، كمـا أُوحي بهـذه المعـاني إلى الـرسـل من قبلك ، والـذي خصك بهذا الوحي ﴿ اللَّهُ العَزِيـزُ الحَكِيمُ ﴾ أي القوي الغـالب ، الحكيم في أفعاله وتدبيره ، ﴿ لَـهُ مَا فِي السَّمَـاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ فكـل ما في السمـاوات من أجرام مـرئية وغيـر مرئيـة ، وكل مـا في الأرض من سهـول وجبال وبحار وأنهار وكائنات حية إنما هي للَّه خلقاً وملكاً لا ينازعه في ذلك

أحـد ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ العَـظِيمُ ﴾ المتفرد بعلو الشـأن والكبريـاء على جميع خلقه .

﴿ تَكَـادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَـطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أي تكـاد السماوات يتشققن من فـوق الأرضين من عظمـة اللَّه وهيبته وجـلالـه ، كمـا تتشقق من هـول ما تدعيه الفرق والجماعات الضالة التي تعيش على وجـه الأرض ، وتنسب إلى اللَّه ما لا يليق بجلاله من وجود شـريك لـه في الملك ، أو ما ينسبـون إليه زوراً من وجود ولـد له وزوجـة ﴿ وَالْمَلاَئِكَـةُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ ﴾ فالتسبيح هو تنزيه اللَّه عن السوء والنقص والعيب . والحمد للَّه : هو الثناء عليه والشكر لنعمه التي شملت جميع خلقـه . فالمـلائكة ينـزهون اللَّه عن كـل سـوء متلبسين بحمـده على نعمـه ﴿ وَيَسْتَغْفِـرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ ويسـألون ربهم المغفـرة لذنـوب مَنْ في الأرض من أهل الإيمـان ﴿ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ألا : حرف تنبيه أي تنبهوا أيها الناس فـاللَّه واسع المغفرة لمن تاب ، كثيـر الرحمـة ، فما من مخلوق إلّا ولـه حظ عظيم من مغفرته ورحمته .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها تحديـد لمهمة رسـول اللَّه محمد ﷺ وهي إنذار قومه من يوم القيامة حيث يجازى فيه الناس على أعمالهم :

﴿ والَّـذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَـاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٦ - ٧) .

والمعنى : والذين اتخذوا من غير اللَّه «أَوْلِيَاءَ » وهي الأصنام التي كان المشركون يعبـدونها في زمن النبي ﷺ وقبله ، ويبتغـون منها الخيـر والنفع ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ اللَّه شهيدٌ على أعمالهم ورقيبٌ عليها لا يخفى عليه

شيء منها يحصيها عليهم ليجازيهم بها يوم القيامة ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وليس موكولاً إليك أمر إيمانهم يا محمد ولا إجبارهم عليه وإنما وظيفتك الإنذار .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِيًّا ﴾ أي وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك كتباً سماوية كالتوراة والإنجيل أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسان قومك ليفهموا ما فيه من الهدى والخير ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ﴾[1] لتخوف وتحذر أهل مكة ، وسميت مكة أم القرى إجلالاً لها لأن فيها البيت الحرام ومقام إبراهيم ، والعرب تسمي أصل الشيء أُماً ، حتى أنه يقال : هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي من حول مكة من سائر بلاد العرب ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي تخوف الناس وتحذرهم من يوم الجمع وهو يوم القيامة ، وسمي بذلك لأن اللّه يجمع فيه الخلائق للحساب ، وهذا اليوم لا شك في وقوعه ، والناس فيه فريقان ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ﴾ وهم الذين آمنوا باللّه ، واتبعوا ما جاءهم به رسل اللّه من الهدى ﴿ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ وفريق في جهنم وهم الذين كفروا باللّه وساروا في طريق الضلال معرضين عما جاءهم به رسل اللّه .

ثم يبين القرآن طبيعة البشر حيال هدى اللّه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ (٨) .

والمعنى : لو أراد اللّه أن يجمع خلقه على الهدى ، ويجعلهم أهل ملّة واحدة يجتمعون على دين واحد لفعل ، ولكنه سبحانه يُدخل من يشاء

(١) أم القرى : هي مكة وقد أراد القرآن بذلك أهلها كما في قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهلها .

من عباده في رحمته بتوفيقه للدخول في الإسلام والكافرون باللّه ليس لهم صديق ينفعهم يوم القيامة ، ولا نصير ينقذهم من عذاب اللّه .

ثم يستنكر القرآن عمل الذين اتخذوا من دون اللّه آلهة يعبدونها ويبتغون فيها الخير والنفع :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ . وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٩ - ١٠) .

فاللّه ينكر على المشركين اتخاذهم آلهة من دون اللّه يبغون منها النفع ، ويخبر أنه هو الولي : أي المتولي لأمور العالم والخلائق ، المدبر لشؤونها الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له وحده ، فإنه هو القادر على إحياء الموتى للحساب وهو على كل شيءٍ قدير .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيءٍ ﴾ حكاية لقول محمد ﷺ للمؤمنين : أي وما اختلفتم مع الكفار من أمور الدين ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فالحكم الفصل فيه يرجع إلى الله ، وقد حكم أن الدين عند اللّه الإسلام ، وأمور الشرائع تؤخذ من القرآن ، فالحلال هو ما أحلّه اللّه ، والحرام هو ما حرّمه اللّه[1] ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي قل يا محمد : ذلكم الحاكم العظيم الشأن هو ربي ومالك أمري ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ على اللّه وحده اعتمدت ، وفوضت أمري إليه ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ وإليه أرجع في أموري كلها وأتوب إليه من ذنوبي .

ويتابع القرآن فيعلن أن الذي يستحق العبادة هو اللّه وحده ، خالق

(١) وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ **وإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى اللّه والرسول** ﴾ .

السماوات والأرض ، وخالق الإنسان والأنعام الـذي ليس له شبيـه ومثيل ، والذي بيده مفاتيح الرحمة والرزق :

﴿ فَـاطِـرُ السَّمَـاواتِ وَالأَرْضِ جَعَـلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجـاً وَمِنَ الأَنْعَـام أَزْوَاجاً يَـذْرَؤُكُم فِيـهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُـوَ السَّمِيـعُ البَصِيـرُ . لَـهُ مَقَـالِيدُ السَّمَـاواتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّـهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١١-١٢).

فاللّه سبحانه يقول بـأنه هـو خالق ومبـدع السماوات والأرض ﴿ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجـاً ﴾ أي خلق لكم من جنسكم نســاء فـأصبحتم بالتوالد ذكوراً وإناثاً ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾ أي وخلق لكم من الأنعـام[1] وهي الإبـل والبقر والغنم والمعـز أصنافـاً من الذكـور والإنـاث ﴿ يَـذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ يخلقكم ويكثركم بواسطة هذه الزوجية نسلاً بعـد نسل من النـاس أو الأنعام .

فتناسل الإنسان والحيوان واستمرار ذلك من أعظم الدلائـل على وجود خالق مبدع ، لننظر إلى ساعة اليد مثلاً فلا يعتقد إنسان أنهـا خُلِقت بنفسها بل أن هناك صانعاً لها ، ثم لنفرض أن هذه الساعة قد مُنحت القـدرة على إيجاد ساعات أُخرى فـإن ذلك لا يفـوق معجزة تـوالد الإنسـان والحيوان . فكل إنسان أو حيوان يرث عن والديه صفـاتهما وأسلوب حيـاتهما ، فهـذه الأمـور لا يمكن أن تحصل صـدفة ، بـل هنـالـك يـد القـدرة الإلٰهيـة التي أبـدعت الإنسان وعـالم الحيوان وزودتهمـا بملايين الأسـرار المـذهلة التي وقف العلم أمامها مبهوراً عندمـا بدأ يستكشف بعض أسـرارها ويـطلع على

(١) اقتصر القرآن على ذكر الأنعام لأن العرب كانوا أول المخاطبين بالقرآن وكانت الأنعام هي قوام حياتهم وعلى مرأى أنظارهم دائماً فلهذا لفت الأنظار إليها .

عظمة الإبداع الإلٰهي .

ثم تـأتي الآية تصف اللّه سبحـانـه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ[1] شَيءٌ ﴾ أي أن اللّه في عـظمته وكبـريائـه وملكـوتـه وأفعـالـه وصفـاتـه لا يشبهـه شيء من مخلوقاته ، وهو سبحانه لا يشبه شيئاً منها ، فـإن قيل إن اللّه عـالم وبصير وغيـر ذلك من الصفـات ، فهذه الصفـات وغيـرهـا وإن كـانت تـطلق على الإنسان فإنها تأتي من ناحية الموافقة اللفـظية فقط ، أمـا صفات اللّه فـإنها تتنـزه عن مشابهـة صفات المخلوقين ﴿ وَهُـوَ السَّمِيعُ البَصِيـرُ ﴾ أي أن اللّه سميع لأقوال العباد بصير بأفعالهم .

﴿ لَـهُ مَقَالِيـدُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي لـه مفاتيـح خزائن السمٰـوات والأرض والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن ، فمـا يفتح اللّه للنـاس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فـلا مرسـل له من بعـده ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع رزقـه وفضله على من يشاء من خلقـه ، ويقتّر على من يشاء منهم فيفقره ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُـلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ فهو سبحـانه يعلم الذي تصلحه توسعة الـرزق عليه أو تفسـده ، كما يعلم من يصلحـه التقتير عليـه أو يفسده ، فيـوسع ويقتـر حسبما يعلم من حـالة الشخص ، فيعـطي لحكمة ، ويمنع لحكمة تخفى على العباد .

(١) كمثله : الكاف هنا زائدة للتوكيد ، أي ليس مثله شيء .

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ
وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ
فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ
وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ
بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ
بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤
فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ
ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ

شرح المفردات

شَرَعَ لكم : بيّن وسنّ لكم طريقاً واضحاً .
ما وصّى به : ما أمر به وألزم .
أقيموا الدِّينَ : اتبعوا دين الإسلام، ووفوه حقه من علم وعمل .
كَبُرَ : عظم وشقّ .
يَجْتبي : يختار ويصطفي .
يُنيب : يرجع إلى اللّه بالتوبة ويقبل على طاعته .
بَغْياً بَيْنَهُمْ : ظلماً وحسداً وميلاً عن الحق .
أَجَلٍ مُسَمًّى : وقت معين وهو يوم القيامة .
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ : لأُنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا .
أُورِثُوا الكتَاب : هم اليهود والنصارى .
مُرِيب : مرتابين شاكين .
واسْتَقم كما أُمرتَ : أثبت على الدين الذي أمرت به .

لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ
بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ
حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ
١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ
قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ
مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ
بَعِيدٍ ١٨ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ
ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٖ ٢٠

شرح المفردات

لا حُجَّةَ : لا خصومة .
إليه المصير : إليه المرجع يوم القيامة .
يُحاجُّون في اللّه : يخاصمون في دين اللّه .
استُجيبَ لَهُ : استجاب له الناس وأذعنوا لأحكامه .
حُجَّتُهُم دَاحِضَةٌ : خصومتهم بَاطلة .
أَنْزَل الكتَابَ : أنزل القرآن وسائر الكتب الإلٰهية المنزلة .
والميزان : المراد به العدل .
مُشْفقُونَ : خائفون .
يُمَارونَ في السَّاعَة : يجادلون في القيامة شاكين فيها .
اللّه لطيف بعباده : رفيق بهم يحسن إليهم وينجيهم من الشدائد .
حَرْثَ الآخرة : عمل الآخرة وثوابها .

تابع سُورَة الشُّورَى

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان أن الإسلام ليس بدين جديد بل هو استمرار لمَا جاء به الأنبياء والرسل من قبل ، خالياً من البدع ، ومحتوياً على الحقائق التي اختلف أتباع الأديان حولها ، مع شريعة توافق التطور البشري :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) .

فاللَّه يخاطب أمة محمد بأنه بيّن لهم وأوضح من الشريعة الإلٰهية ما أمر به أمة نوح ، وأمم إبراهيم وموسى وعيسى .

لقد اقتصرت هذه الآية على ذكر هؤلاء الأنبياء ـ مع أن شريعة اللَّه نادى بها أنبياء اللَّه جميعاً ودعوا أقوامهم إليها ـ لأن الأنبياء المذكورين هم مشاهيرهم ، فنوح عليه السلام يقترن اسمه بأكبر حادثة في التاريخ وهي حادثة الطوفان ، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده ، وموسى عليه السلام جاء بالتوراة ، وعيسى عليه السلام جاء بالإنجيل .

والمراد بالشريعة الواحدة التي أوصى بها هؤلاء الأنبياء ومنهم محمداً تلك الأمور التي لا بد منها لكمال النوع الإنساني ، وهي العقيدة بوحدانية اللَّه ووجود اليوم الآخر ، والعمل بالفضائل التي تعود على المجتمع الإنساني بالخير والفلاح ، والقيام بالعبادات المهذبة للنفوس .

أما صور العبادات ورسومها ، وما في الشرائع من قوانين منظمة

للتعامل ومحققة للمصالح فقد اختلفت في الشرائع حسب اختلاف استعداد الأمم كما هو معروف الآن في اختلاف الشرائع الوضعية ، ولهذا يقول تعالى في هذا الصدد :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (المائدة : ٤٨) .

ويتابع القرآن خطابه لأمة محمد : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقوا فِيهِ ﴾ أي اعملوا بما شرعه اللَّه لكم من الدين ولا تختلفوا فيما أمرتم به من شرع اللَّه .

والملفت للنظر أن القرآن حذّر من الاختلاف قبل أن تظهر بوادره وهذه نبوءة للقرآن بأن التفرق سيجتاح أمة محمد كما اجتاح الأمم السابقة . وهذا التفرق الحاصل اليوم بين المسلمين هو الذي أدى إلى ضعفهم وإذلالهم من قِبَلِ أعدائهم ، بينما نرى القرآن في كثير من وصاياه يشدد على الوحدة ويحذر من التفرقة .

﴿ كَبُرَ عَلَى المشْرِكينَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ ﴾ أي شق وعظم على المشركين دعوة النبي لهم بترك عبادة الأصنام ، وظهرت آثار ذلك في أقوالهم وأفعالهم ، فقد آذوا النبي ﷺ بأنواع الأذى ، ووصموه بالسحر والجنون ﴿ اللَّه يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يصطفي لدينه من يشاء من عباده ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ويوفق للهداية من يرجع إليه بالطاعة والتوبة . فالخطوة الأولى تكون من الإنسان بالرجوع إلى اللَّه بالتوبة وعندها يمنُّ اللَّه عليه بالهداية .

ثم يبين القرآن أسباب التفرق بين اتباع الأديان السابقة وتأثير هذا التفرق على الدين نفسه :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى لَقُضِيَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفي شَكّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١٤) .

فالذين اتبعوا كل نبي تفرقوا في دينهم ، وذهب كل فريق إلى رأي يخالف رأي الآخرين من بعد ما جاءهم العلم أن الفرقة في الدين مخالفة لأمر اللّه ، وهذه الفرقة إنما حصلت بسبب البغي بينهم كما يقول القرآن ، والبغي في اللغة هو العدول عن الحق والظلم والحسد ﴿ وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسمّى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من اللّه بتأخير حسابهم وعذابهم إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي لقضى اللّه بهلاكهم وعجل عذابهم في الدنيا ﴿ وَإِنَّ الّذِين أُورِثُوا الكِتَابَ ﴾ وإن أهل الكتاب الذين ورثوا التوراة والإنجيل ﴿ مِنْ بَعْدِهم ﴾ من بعد أسلافهم الذين تفرقوا في دينهم ﴿ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ لفي شك من صحة التوراة والإنجيل . وهذه حقيقة ملموسة فكثير من اتباع المسيحية واليهودية يشكون في صحة ما بين أيديهم من المدين بسبب كثرة الخلافات والفرق التي استحدثت ، وبسبب البدع والشروحات المبهمة التي طرأت على أديانهم مما حدا بالكثير منهم إلى نكران الأديان عامة وسلوك طريق الإلحاد .

وبعد تقرير هذه الحقائق التي أدت إلى الشك في دين اللّه يأتي الخطاب إلى النبي ﷺ والمؤمنين بالالتزام بأمور هامة فيها صلاحهم وهي مكونة من عشر فقرات كل واحدة منها منفصلة عما قبلها :

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم وَقُلْ آمَنْتُ بما أَنْزَلَ اللّه من كِتاب وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١٥) .

فاللّه يقول : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أي فادع يا محمد إلى دين الإسلام الذي أوحاه اللّه إليك ﴿ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ واستقم أنت ومن اتبعك من قومك على عبادة اللّه والعمل بالإسلام كما أمرك اللّه تعالى ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكوا في الحق الذي شرعه اللّه لكم من أهل الملل الأخرى الذين ارتابوا في دينهم ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي قل : آمنت بكتب اللّه المنزلة كلها ، وذلك أن المتفرقين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعضها الآخر ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي وأمرت لأقضي بينكم بالحق إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليَّ ﴿ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ هنا إعلان لمساواة الناس جميعاً ، وبطلان استعلاء بعضهم على بعض ، فاللّه خالق ومالك لجميع الناس على مختلف طبقاتهم لا ميزة لأحدهم على الآخر إلاّ بالعمل الصالح ، وفي هذا النص القرآني نفي لما كان يدعيه اليهود من أن اللّه يحابيهم ويفضلهم على من سواهم من الأمم ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي لنا ثواب ما اكتسبناه من الأعمال ولكم ثواب ما اكتسبتم منها ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم ، وهذه دعوة إلى المسالمة والتسامح مع من يخالف المسلمين في دينهم ﴿ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ اللّه يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي بيننا بالحق ويجازي كل إنسان بما عمل ﴿ وَإِلَيْهِ المصِيرُ ﴾ وإليه المرجع بعد الممات .

ثم تأتي الآية التالية وفيها تهديد للذين يخاصمون الإسلام ويعادونه بالعذاب يوم القيامة :

﴿ والَّذِينَ يُحاجُّونَ في اللّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهم وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٦) .

والمعنى : والـذين يخـاصمـون في دين اللَّه وهـو الإسـلام بحججهم البـاطلة من بعد مـا استجاب النـاس لهـذا الـدين ﴿ حجتهم دَاحِضَـةٌ عِنْـدَ رَبِّهم ﴾ فخصومتهم باطلة عند ربهم ولا أساس لها من الحق وعليهم غضبٌ من الله ولهم في الآخرة عذاب شديد في جهنم . هذا الآية قيل إنها نـزلت في قـوم من اليهـود خـاصمـوا أصحـاب رسـول اللَّه في دينهم وطمعـوا أن يصدوهم عنه .

ثم يبين القـرآن بـأن اللَّه أنـزل الكتب الإلٰهيـة بـالحق والعـدل ، وأن القيـامة آتيـة لا ريب في وقوعهـا حيث يحيي اللَّه المـوتى ويجـازيهم على ما فعلوه في دنياهم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَـابَ بِالحَقِّ والمِيـزَانَ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّاعَـةَ قَـرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَـا الَّذِين لا يؤمِنُـون بِهَا وَالَّـذين آمنـوا مُشْفِقُـونَ مِنْهَـا وَيَعْلَمُـون أَنَّهـا الحَقُّ ألا إنَّ الـذين يُمـارُون في السَّـاعَـةِ لَفي ضَـلالٍ بَعيدٍ ﴾ (١٧ ـ ١٨) .

فاللَّه سبحانه أنزل الكتاب والمراد به القرآن وسائر الكتب الإلٰهيـة التي هي مشتملة على الحق في أحكامها ، كما أنه سبحانه أنزل (الميزان) وهو العـدل لأن الميزان آلـة الإنصاف والعـدل ، ليقضي بين الناس بـالإنصـاف ويحكم فيهم بحكم اللَّه ﴿ وَمَـا يُدْريـكَ لَعَلَّ السَّـاعَـةَ قَـرِيبٌ ﴾ وأي شيء يعلمك يا محمد لعل الساعة التي تقوم فيها القيامة قريبة الوقوع . والمناسبة من ذكر القرآن لاقتراب القيامة مع إنزال الكتب الإلٰهية بالحق والعدل، هـو العمل بشرائـع اللَّه قبل أن يفـاجأ النـاس بيوم الحسـاب وهم منغمسون في المعاصي ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَـا الَّذِين لا يُؤْمِنُـونَ بِهَا ﴾ أي يستعجلك يـا محمد بمجيء القيامة الذين لا يوقنـون بحدوثهـا استبعاداً لهـا وكفراً بهـا واستهزاءً

﴿ والَّذينَ آمَنُوا مُشْفِقُون مِنْهَا ﴾ والذين صدقوا بوقوعها خائفون من مجيئهـا لأنهم لا يـدرون ماذا سيكـون مصيـرهم فيهـا ، فهم يجتهـدون في العمـل الصالح ومع ذلك يخافون أن لا يكون مقبولاً عند اللَّه ولهذا فهم دائماً على خـوف وحذر ﴿ وَيَـعْـلَـمُـونَ أَنَّهَـا الْحَقُّ ﴾ ويوقنـون أن مجيء القيامـة حق لا محـالة ﴿ ألا إنَّ الَّـذِين يُمَارُون في السَّـاعَةِ ﴾ ألا إن الـذين يشكون في القيامة ويجادلون بهـا ﴿ لفي ضَلالٍ بَعِيـدٍ ﴾ لفي بُعْدٍ عن الهـدى ، وزيغ عن سبيل الحق والرشاد .

وبعد الكلام عن القيامة وموقف البعض منها ينتقل القرآن إلى الحديث عن الرزق الذي يتفضل به اللَّه على عبادِه في هذه الدنيا ، هذه الدنيا التي يجب أن لا يغتر بها الإنسان وأن لا تصرفه عن العمل للآخرة .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ . مَنْ كَانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَـزِدْ لَهُ في حَـرْثِهِ . وَمَنْ كَـانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الـدُّنْيَا نُؤْتِـهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (١٩ ـ ٢٠) .

فاللَّه سبحانـه لطيف بعبـاده أي رفيق بهم يرزق من يشـاء فيوسّـع عليه الرزق ، ويقتّر على من يشاء منهم وهو ﴿ القَـويّ ﴾ الباهـر القدرة الغـالب على كل شيء ﴿ العَزِيز ﴾ أي المنيع الذي لا يغلب .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ﴾ الحرث في اللغة : العمل في الأرض لتهيئتهـا للزرع وإلقـاء البـذر في الأرض ، ويـطلق على الـزرع الحـاصـل منهـا . ويستعمل الحـرث في ثمرات الأعمـال ونتائجهـا بطريق الاستعـارة المأخوذة من تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور . والمعنى : من كان يريد ثواب الآخرة ونصيبه منها من الأجر ﴿ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ﴾ أي نضاعف له ثوابه فنجعل له بالحسنة الواحدة عشراً وزيادة .

﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أي ومن كان يريد متاع الدنيا وطيباتها ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي نعطه منها حسبما قسمنا له لا ما يريده لنفسه ويبتغيه ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ وليس له في الآخرة حظ من النعيم لأن همه وعمله كان لأجل دنياه فقط . وتأمل الفرق بين التعبيرين بجانب الآخرة والدنيا ، ففي جانب الآخرة تقول الآية ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ وفي جانب الدنيا ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي لا يبلغ كل ما يريد وإنما يؤتيه اللّه جزءاً مما يريد .

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا
شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى
رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ
﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً
نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

شرعوا : ابتدعوا .
كلمة الفَصْلِ : القضاء السابق بأن الجزاء يوم القيامة .
إلا المودّة في القربى : إلّا أن تحبوني لقرابتي منكم .
يقترف حسنة : يعمل بطاعة اللّه .
نَزِد لَهُ فيها حُسناً : نضاعف له ثوابها .
افترى : اختلق وكذب .
يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ : يطبع على قلبك فينسيك القرآن .
وَيَسْتَجِيبُ الذين آمنوا : أي يستجيب اللّه دعاءهم إذا دعوه .

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن
يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ
ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ
عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

بَسَطَ : وسَّع .
لَبَغَوْا : لطغوا وتكبروا وظلموا .
يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ : حدّد اللّه مقدار الرزق حسب تدبيره .
يُنَزِّلُ الغَيْثَ : ينزل المطر .
قَنَطُوا : يئسوا .
ينشر رحمته : يبسطها ويمنحها .
بَثَّ فيهما : فرق ونشر .
بِمُعْجزينَ : لا تستطيعون أن تفلتوا من العقاب .

تابع سُورَة الشُّورَى

ثم ينتقل القرآن إلى المقارنة بين ما شرعه اللّه للإنسان من الدين مما به سعادته ، وبين ما استحدثه الإنسان من البدع والضلالات التي بها شقاؤه :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢١) .

فاللّه تعالى يقول : ﴿ أَمْ لَهُم شُرَكَاءُ ﴾ أي : بل ألهم شركاء والاستفهام للتقرير والتوبيخ ، والشركاء هم شركاؤهم في الكفر كالشياطين والمغوين من الناس وهؤلاء الشركاء ابتدعوا لهم من الدين ﴿ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ما لم يبح اللّه لهم ابتداعه ، علماً بأن اللّه وحده هو المشرّع ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي ولولا القضاء والحكم السابق من اللّه بتأخير العقاب والثواب إلى يوم القيامة لقضي بين الكافرين والمؤمنين بالجزاء في الدنيا ﴿ وَإِنَّ الظَّالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهؤلاء الذين عدلوا عن شرع اللّه هم ظالمون ، وقد استحقوا العذاب الأليم في الآخرة لظلمهم ، فقد ظلموا الحق حين اتخذوا أرباباً من دون اللّه ، وحين اتخذوا له شركاء ، كما أنهم ظالمون لأنفسهم حين كفروا بربوبية اللّه وحده وجلبوا لأنفسهم العذاب الأليم الموجع في نار جهنم .

ويتابع القرآن فيبين مصير الظالمين والمؤمنين في الآخرة :

﴿ تَرَى الظَّالِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في رَوْضَاتِ الجنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاءُون عِنْدَ رَبِّهِم ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

قُلْ : لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢٢ - ٢٣) .

فاللَّه يقول : ترى يا محمد الكافرين باللَّه يوم القيامة ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي وجلين خائفين من عقاب اللَّه على ما كسبوا في الدنيا من أعمالهم السيئة ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي أن عقاب اللَّه نازلٌ بهم وهم ذائقوه لا محالة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والذين صدقوا بوجود اللَّه ووحدانيته وأطاعوه فيما أمر به ونهى عنه هم ﴿ في رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ ﴾ أي هم في روضات البساتين في الآخرة ، وروضات جمع روضة وهي الأرض ذات الخضرة والبستان الحسن ، والمكان الذي يجتمع فيه الماء ويكثر نبته ويعجب زهره ﴿لَهُمْ مَا يشاءون عِنْدَ رَبِّهِم ﴾ مما تشتهيه أنفسهم من النعيم ، والتعبير بـ ﴿ يشاءون ﴾ يعطي معنى الانفتاح على إطلاقه بلا حدود وهو يصور بذلك نعيماً لا يحده الوصف . ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة .

﴿ ذَلِكَ الَّذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ أي ذلك النعيم المشار إليه في الآية السابقة هو الذي يبشر اللَّه به عباده الذين وصفهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وذلك ليزدادوا طاعة للَّه وطمأنينة على مصيرهم في الآخرة ، والملفت للنظر أن اللَّه قرن الإيمان بالعمل الصالح ، فالإيمان وحده لا يكفي وكذلك العمل الصالح ، بل لا بد من اقترانهما معاً ليحوز الإنسان رضاء ربه .

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجراً إلاّ المودَّة في القُرْبَى ﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم أجراً على تبليغ رسالة اللَّه لكم ، ولكني أذكركم المودة في القربى التي بيني وبينكم . وقد كان لرسول اللَّه محمد قرابة في جميع

أفراد قبيلة قريش فلما كذبوه في بدء الدعوة الإسلامية وأبوا أن يبايعوه على الإسلام طلب منهم أن لا يؤذوه ويحفظوا حرمة هذه القرابة التي تستوجب المودة لا العداوة والخصام . وقيل المراد بالقربى التقرب إلى اللَّه بالطاعات ، والمعنى : لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تترددوا إلى اللَّه فيما يقربكم إليه بالعمل الصالح . ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ ومن يعمل حسنة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ نضاعف له الحسنة بعشر أمثالها وما يزيد على ذلك من الجزاء الحسن والثواب ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ إن اللَّه غفور لذنوب عباده التائبين ، شكور لحسناتهم وطاعتهم إياه .

ثم ينتقل القرآن إلى دحض شبهة أثارها المشركون وهي أن القرآن من تأليف محمد وليس وحياً من عند اللَّه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فإن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٤) .

أم : بمعنى بل ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والمعنى : بل أيقول كفار مكة بأن محمداً اختلق على اللَّه كذباً حين ادعى أن القرآن من عند اللَّه ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ إن يشأ اللَّه يطبع على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معاني القرآن وبحيث لا تستطيع أن تنطق بحرف من حروفه لو كنت مفترياً ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي ويُذهب اللَّه الباطل ويثبت الحق وينشره بين الناس بالوحي الذي أنزله اللَّه عليك يا محمد ، وهذا تأكيد على أن محمداً ليس مفترياً ، فكيف يفتري ومن عادته سبحانه محو الباطل ، وهذه الآية وعد للرسول بأن اللَّه سيهزم الباطل الذي كان عليه الكفار وينصر الحق الذي بعثه اللَّه به ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إن اللَّه ذو علم بما في صدور خلقه لا تخفى عليه خافية .

ثم يبين القرآن بأن اللَّه يقبل توبة التائبين ويعفو عن السيئات ويستجيب دعاء المؤمنين :

﴿ وَهُوَ الَّذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٥ ـ ٢٦) .

فاللَّه سبحانه يقبل توبة المذنبين من عباده مما عملوا من المعاصي واقترفوا من السيئات، والتوبة هي الندم على فعل المعصية والعزم على عدم المعاودة لها ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ويعلم ربكم أيها الناس ما تفعلونه من خير أو شر ﴿ وَيَسْتَجِيبُ[1] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي يستجيب اللَّه لهم ، والمراد إجابة دعائهم والإثابة على طاعتهم ، وقيل إن المعنى : يستجيبون للَّه بالطاعة ويلبون نداءه إذا دعاهم إليها ﴿ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأن يعطيهم زيادة على ما يستحقون من ثواب وما دعوا به ربهم ﴿ وَالكَافِرونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ والكافرون باللَّه لهم يوم القيامة عذاب شديد على كفرهم به إذا لم يبادروا إلى التوبة ويستجيبوا للَّه بالطاعة .

وبعد أن بيّن القرآن بأن اللَّه يجيب دعاء المؤمنين أردف بعد ذلك بأن اللَّه لا يعطي عباده كل ما يطلبونه من الأرزاق ، بل يخصهم بالقدر الذي فيه مصلحتهم ، وأنه سبحانه مصدر الأرزاق جميعاً :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا في الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبيرٌ بَصِيرٌ . وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٧ ـ ٢٨) .

---

(١) ويستجيب الذين : التقدير للذين فحذفت اللام كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم ﴾ أي كالوا لهم . واستجاب وأجاب بمعنى واحد والسين لتوكيد الفعل .

فاللَّه يقول : بأن توسعة الرزق على الناس تؤدي بهم إلى البغي في الأرض . والبغي في اللغة : العدول عن الحق ، والاستطالة على الناس والكبر والفساد ، هذه المعاني تعكس لفظة البغي ، وهذا أدق تصوير للطبيعة الإنسانية عندما تملك ناصية الثروة حيث نرى كثيراً من الناس الذين اغتنوا بعد فقر يبغون في الأرض ويعيثون فيها فساداً ويتكبرون على عباد اللَّه . وكما نشاهد ذلك في الأفراد نشاهد ذلك في الأمم ، والتاريخ أعظم شاهد على ذلك فكم من أمم قوية غنية اجتاحت أمماً ضعيفة فأذاقتها ألوان العسف والظلم وأشاعت فيها الفساد والخراب .

ثم يبين اللَّه بأنه أعطى الناس الرزق بمقادير متفاوتة ﴿ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾ فهو سبحانه يخصهم من الرزق بما يختاره لهم مما فيه صلاحهم أو مما فيه ابتلاء لهم ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ إنه سبحانه عالم بأحوال عباده وطبائعهم وعواقب أمورهم ، فيعطي بقدر ويمنع بقدر ويوسع على فريق ويقتر على فريق ووراء ذلك حكمة اللَّه البالغة .

ولا ريب أن هذا المفهوم القرآني فيه عزاء وسلوى للذين عاشوا عمرهم في الفاقة بالرغم من تلمسهم أسباب الغنى ، فاللَّه سبحانه قد قسم الأرزاق بين عباده لحكمة يدركها وحده ، فقد يكون الفقر نعمة على المرء إذ فيه يلتزم حدود ربه ويعمل بطاعته ، وقد يكون الغنى سبباً في الإعراض عن أوامر ربه والإسراف في الشهوات والملذات المحرمة مما يغضب ربه .

ثم يبين اللَّه فضله على الناس : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فالغيث هو المطر وسمي بذلك لأنه يغيث الناس وسائر المخلوقات من الجوع والعطش ، ولولا المطر لجفت الينابيع والأنهر ، ولأصبحت الأرض قفراء مجدبة ، وهلك ما عليها من حيوان ونبات ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ من بعد

ما يئسوا[1] من نزول المطر ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي يبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ وهو الذي يتولى عباده بإحسانه ، وهو المحمود على كل حال التي شملت نعمه كل الكائنات .

وبعد بيان فضل اللَّه بإنزال المطر يلفت القرآن الأنظار إلى آيات اللَّه في الكون مما يشهد بعظمة القدرة الإلٰهية :

﴿ وَمِنْ آياته خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) .

أي من العلامات الدالة على وجود اللَّه وسلطانه العظيم وقدرته الباهرة خلق السماوات والأرض ﴿ وَمَا بَثَّ فيهمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾[2] أي وما نشره وفرقه فيهما من مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ وهو القادر على جمع العقلاء في الوقت الذي يشاء بعثهم أحياء يوم القيامة بعد مماتهم للحساب والجزاء .

وبعد هذا ينتقل القرآن إلى بيان أن كثيراً من مصائب الإنسان هي من كسب يده :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ

(١) قيل إن هذه الآية نزلت عندما حبس اللَّه المطر عن أهل مكة سنين عديدة حتى قنطوا ثم أنزل اللَّه المطر .

(٢) وفي الإشارة إلى خلقه سبحانه جميعَ أصناف الحيوانات المبثوثة في السماوات والأرض بيان إلى أن هنالك نوعاً من الحياة في عوالم السماء لا ندري كنهها ، ولعل التطورات في غزو الفضاء تكشف أسرار هذا النوع من الحيوان الذي يسكن في بعض كواكب السماء ، ولكن سواء توصل الإنسان للكشف عن ذلك أم لا فإننا نؤمن بهذه الحقائق التي أشار إليها القرآن ونفوض العلم فيها إلى اللَّه سبحانه .

وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ (٣٠ ٣١) .

أي وما يصيبكم أيها الناس من مصيبةٍ في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم فإنما يصيبكم ذلك عقوبةً من اللَّه لكم بسبب ما اقترفتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم ، ويعفو ربكم عن كثير من آثامكم فلا يعاقبكم بها ﴿ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ في الأَرْضِ ﴾ أي ولستم بقادرين أن تعجزوا اللَّه عن إنزال المصائب بكم عقاباً لكم وإن هربتم في الأرض كل مهرب ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ وليس لكم من غير اللَّه من يتولاكم بالرحمة ، ولا نصير ينصركم ويرد عنكم عقاب اللَّه .

فالمعاصي سبب لإصابة الإنسان بالمصائب وإليكم بعض الأمثلة : فالزاني يهدر ماله وصحته على الغواني بالإضافة إلى ما يتعرض له من أمراض تناسلية تقضي على نسله وتصيبه بشر الأمراض كالعمى والعقم والزهري والسفلس والإيدز الذي يؤدي إلى فقدان المناعة عند الإنسان ويقضي عليه . والسارق والمجرم يعرض كل منهما نفسه للمخاطر وتنتهي حياتهما في السجن والعار ، والمدمن على الخمر يصاب بكثير من الأمراض الجسمية والعقلية ويسبب كثيراً من حوادث السير التي ينعكس خطرها عليه وعلى الغير .

هذا في الأفراد أما في الجماعات فكثير من المصائب التي تنزل بها تكون هي التي تسببت في حدوثها . فالأمة التي يكثر فيها الظلم من حكامها وأثريائها تكون عرضةً للإنقلابات والنزاعات الدامية . والأمة التي تدب فيها الفرقة والتنازع يكون ذلك سبباً لضعفها وغزوها من جيرانها .

هذا وليست كل المصائب من عمل الإنسان فهناك مصائب لا دخل للإنسان فيها يصيب اللَّه بها من يشاء من عباده ابتلاءً وامتحاناً لهم .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي
ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟
وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم
مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ
﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم
مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ

شرح المفردات

الجَوار في البَحْر كَالأَعْلام : السفن الجارية في البحر كالجبال .
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ : فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر .
يُوبِقْهُنَّ : يغرقهن ويهلك من فيهن .
بِمَا كَسَبُوا : بسبب ما ارتكبوا من سيئات .
مَا لَهُم مِنْ مَحِيصٍ : ما لهم من مهرب ومخلص من العذاب .
استجابوا لربهم : أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته .
أَصَابهم البَغْيُ : نالهم الظلم والعدوان .
ما عليهم مِنْ سَبيل : ما عليهم من مؤاخذة أو معاقبة .

فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ
ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ
أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾
ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن
مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

شرح المفردات

غَفَرَ : تجاوز عن ظالمه .
مِن عَزْمِ الأمور : من الأمور الجادة المطلوبة شرعاً .
هَل إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيل : هل من طريق للرجوع إلى الدنيا لطاعة الله .
ينظرون مِن طَرْفٍ خفيّ : يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها .
عَذَابٌ مُقيم : عذاب دائم لا ينقطع .
وما لكم مِنْ نكير : لا تقدرون أن تنكروا شيئاً من أعمالكم .

وبعد الكلام عن المصائب وأسبابها ينتقل القرآن إلى الكلام عن مظاهر قدرة اللّه العظيمة المتمثلة في خلق البحار التي تجري السفن عليها :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ[1] فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ . إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ . وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣٢ ـ ٣٥) .

والمعنى : ومن العلامات الدالة على وجود اللّه وقدرته : تسخيره البحار لتجري فيها السفن الشبيهة بالجبال .

هذه البحار من أنشأها ومن أودع فيها خصائصها من كثافة وعمق وضغط حتى تحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها الأولية سواء أكانت من خشب أو حديد أو غير ذلك من المعادن ؟ هذا التساؤل يحملنا على الإيمان بالخالق جل وعلا لأن هذه الأشياء لا يعقل أن تخلق نفسها أو تنشأ صدفة ، فكما أن السفن شاهدة على أن يد الإنسان صنعتها فكذلك مادة السفن والبحار وما فيهما من خصائص شاهدة على يد القدرة الإلٰهية .

هذا وإن عالم البحار عالم يزخر بما لا يحصى من الأحياء المائية

(١) الجوار : هي السفن ، والأعلام : جمع علم وهو الجبل ، فوصف السفن بالجبال هو من نبوءات القرآن فاليوم بعد بناء السفن التجارية والسياحية الضخمة وحاملات الطائرات والبوارج الشبيهة كلها من حيث الضخامة بالجبال لا يسعنا إلّا أن نحني رؤوسنا لهذا الوصف القرآني الذي برز وضوحاً بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن .

المتنوعة الشكل واللون والحجم التي تشهد على وجود الخالق لها ، ولا سبيل إلى استكشاف عجائب البحار إلّا بواسطة السفن فلهذا كانت السفن آية من آيات اللّه التي بواسطتها نستكشف عظمة القدرة الإلٰهية في عالم البحار .

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أي إن يشأ اللّه يسكن الريح فتظل السفن ثابتة على ظهر الماء لا تجري براكبيها إلى مقاصدهم وهنا يشير القرآن إلى عامل الريح في تسيير السفن في زمن نزول القرآن حيث كانت السفن شراعية ، هذه الريح لا يد للإنسان فيها بل أنشأها اللّه وجعل لها مواسم في هبوبها وسكونها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن في جريان هذه السفن في البحار لعظة وعبرة لكل ذي صبر على طاعة اللّه شكور لنعمه وأياديه عنده ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أو يغرقهن ويهلك من فيها وذلك بسبب ذنوب أهلها ، ويعفو اللّه سبحانه عن كثيرٍ من ذنوب عباده فلا يحاسبهم عليها .

هنا يستوقفنا ويثير فينا التأمل في عدد السفن التي غرقت وهلك أكثر من فيها بسبب الأعاصير ، أو من ارتطام السفن بجبال من الثلج ، أو من اصطدام بعضها ببعض ، أو بسبب إصابتها بالقنابل والصواريخ ، كل ذلك يشهد على ضعف الإنسان وأن فوقه قدرة اللّه المسيطرة على مقدراته .

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي وليعلم الذين يخاصمون اللّه في آياته وعبره وأدلته على توحيده وقدرته ، ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي ليس لهم ملجأ أو مهرب من العذاب .

ثم يبين القرآن بأن نعيم الدنيا متاع زائل بينما نعيم الآخرة هو نعيم

دائم لا يزول يستحقه المؤمنون الذين يتصفون بصفات خاصة بينتها الآيات التالية :

﴿ فَمَا أُوتيتُم مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٣٦ ـ ٣٨) .

فاللَّه يقول : فما أُعطيتم أيها الناس من متاع الدنيا وزينتها من مال وولد فهو متاع زائل تتمتعون به في الحياة الدنيا ولا ينفعكم في الآخرة ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وما عند اللَّه من ثواب في الآخرة لأهل طاعته خير من متاع الدنيا وأدوم لأن نعيم الآخرة باقٍ لا يزول كما يزول نعيم الدنيا . ﴿ لِلَّذِينَ آمنوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي وهذا النعيم خاص بالذين آمنوا باللَّه وعلى ربهم يعتمدون ويفوضون إليه أمورهم .

ومن صفات هؤلاء المؤمنين : ﴿ وَالَّذِين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ إنهم يجتنبون كبائر الذنوب فلا يقربونها ، كما يجتنبون الفواحش ، والفواحش جمع فاحشة وهي ما يشتد قبحه من الذنوب ، وكثيراً ما يراد بالفاحشة : الزنا .

وكبائر الإثم هي : ما نص القرآن على تحريمه ، أو ما وجب فيه حد (أي عقوبة) أو ما ورد فيه توعّد بالعذاب يوم القيامة ، أو بالغضب من اللَّه ، أو ما وجب فيه لعنة ، أو ما ورد فيه وعيد شديد ، أو وصف فاعله بالفسق . وقد نصت الأحاديث الشريفة على بعض كبائر الإثم وهي : الشرك باللَّه ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، وقتل النفس البريئة بغير حق ، والربا ، والتسبب في سب الوالدين كأن يسب أحد رجلاً

فيسب ذلك الرجل والديه ، والفرار من المعركة عند الإلتحام مع العدو ، وأكل مال اليتيم ، وتعاطي السحر واتهام المحصنات المؤمنات بالفاحشة .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي عند الغضب يصفحون ويحلمون عمن ظلمهم ، فلا ينتقمون منه حال غضبهم ، والغضب غريزة من الغرائز الطبيعية ركبها اللَّه في الإنسان ليصون بها عرضه ويحمي بها نفسه ، ويحفظ حرمته ، ولكن الإنسان تنكب عن طريقها المشروع واستعملها في هوى النفس ، وسخرها لطغيان العاطفة ، وجعل أول عوارض الغضب الانتقام من الخصم . والإنسان عند الغضب لا يستطيع كبح جماح نفسه فيسرف في الانتقام ، ولذا مدح اللَّه الذين يغفرون لمن أثار غضبهم .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي أنهم أجابوا دعوة ربهم حين دعاهم إلى توحيده وطاعته وتركوا سيء الأعمال .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ﴾ وإقامة الشيء توفيته حقه من علم وعمل ،وإقامة الصلاة أداؤها مع توفيتها حقها من خشوع وإخبات للَّه ومراقبة له ، وهذا يؤدي إلى الإقلاع عن المنكر خيفة من اللَّه ، ولهذا ورد في القرآن : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمنكَرِ ﴾ .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أي وإذا اشتد عليهم أمر أو قاموا بعمل ما تشاوروا فيما بينهم .

فالقرآن إذ جعل الشورى من صفات المؤمنين فما ذلك إلاّ ليجنبهم طريق الزلل والخسران في حياتهم ، ويدفعهم إلى سلوك الطريق القويم الذي فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويباعد بينهم وبين الاستبداد بالحكم والرأي الذي طالما جرّ إلى أوخم العواقب وأعظم الكوارث على الأمم من قِبَلِ

زعمائها . ورسول اللَّه قال : « لا ندم من استشار » وذلك أن المؤمن أو الحاكم عندما يستطلع رأي من هم أهل للشورى من أهل الخبرة فإنه يستفيد من حصيلة ما عند هؤلاء من التجارب والعلم ، وفي هذا من الفائدة والنفع على الأمة ما لا يخفى ، ففي أي ميدان من ميادين الحياة هناك أناس نبغوا في اختصاصاتهم وسبروا العلم الذي تفرغوا له وعرفوا أسراره فعند استشارتهم يُستنبط الرأي الصواب . وقد قال علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه : « الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه » .

والجدير بالذكر أن الإسلام لم يضع نظاماً خاصاً للشورى وذلك لأنها من الشؤون التي تتغير فيها وجهة النظر بتغير الأجيال والتقدم الحضاري للأمم بل ترك أمر الشورى للأمم والجماعات تنتقي من نظمها ما يتوافق مع مصالحها ومع ما يتناسب من الأمور المتطورة في حياتها ، وها نحن نرى أكثر الدول المتحضرة تعتمد نظام الشورى في تصريف أمورها ؛ وقد استحدثت لذلك عدة تسميات لها في مجالس خاصة لإدارة شؤون الدولة .

فإقرار قانون الشورى في القرآن وجعله من صفات المؤمنين يبين لنا عظمة التشريع القرآني الذي يصلح لكل زمان ومكان .

ومن صفات المؤمنين : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ ﴾ أي ينفقون مما رزقهم اللَّه من الأموال في الزكاة والصدقة وسبل الخير . فالآية حثت على الإنفاق باعتدال وعدم البخل ، فالمؤمنون ينفقون من الذي رزقهم اللَّه إياه ، ولا ينفقونه كله كما أنهم لا يبخلون به ولا يكنزونه .

ويتابع القرآن الكلام عن صفات المؤمنين ، وكيف يواجهون المعتدين ، مع التحذير لهم من الظلم والتعدي على الغير :

﴿ وَالَّذِين إِذَا أَصَابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٣٩ - ٤٣) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَالَّذِين إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ ﴾ أي وإذا أصاب المؤمنين الظلم والاعتداء ﴿ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ هم ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا ، فالمؤمنون في نظر القرآن هم المؤمنون الأقوياء الذين يستطيعون الانتصاف ممن يظلمهم وينتصرون عليه ، وهذا يعني أن من واجبات الإيمان الأخذ بأسباب القوة والتمرس بها ، وإعداد قوة السلاح بحيث تكون الجماعة المؤمنة على أتم الاستعداد لردع الخصم عندما يحاول أن يعتدي عليها . فالمؤمن في نظر القرآن ليس بالذليل المستضعف الذي يقبل الإهانة والذل من الخصم الباغي ، بل يجب أن يكون من القوة بحيث يستطيع أن ينتصر على المعتدي عند أي اعتداءٍ منه وهذا ما تدعو إليه الآية القرآنية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم ﴾ .

وعند اعتداء الغير لا يكون رد الاعتداء بحرق الأخضر واليابس وإبادته وتدمير مرافقه والإنتقام منه بأضعاف اعتدائه ، وإنما يكون بمقابلة الإساءة بمثلها كما تدعو بذلك الآية التالية : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ومقابلة المسيء بالمثل جاء في نصوص قرآنية أخرى كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ .

ولكن لا يقتصر القرآن على هذا المفهوم العادل ، بل يمضي قُدُماً فيرغّب في العفو[1] بعد الدعوة إلى مقابلة الإساءة بمثلها ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي من عفا عن المسيء إليه وأصلح ما بينه وبين من يعاديه بالعفو عما صدر منه فيجزيه اللّه سبحانه أعظم الجزاء ، ثم يضيف القرآن قوله : ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يحب اللّه المعتدين البادئين بالسيئة .

ولا بد من الإشارة إلى أن العفو لا يكون إلاّ مع القدرة على ردع المعتدي ومبادلته بالمثل فهنا يكون للعفو مكانته ووقعه المؤثر عند الخصم لأنه العفو عند المقدرة لا عفو الضعف والذل ، فالمعتدي حين يرى أن العفو جاء تفضلاً وكرماً يخجل من نفسه ويتحول اعتداؤه إلى مودة واحترام لمن بادله بالعفو .

ويتابع القرآن الكلام عن مقابلة الإساءة بمثلها فيقول : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي ولمن انتصر لنفسه بعد ظلم الظالم إياه وعاقبه بمثل ما عوقب به ﴿ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم حرج ولا مؤاخذة ولا لوم ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أي إنما سبيل الحرج واللوم يكون على المعتدين الذين يبدأون الناس بالظلم ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي ويتكبرون في الأرض ويفسدون

(١) الناظر في شريعة الإسلام يراها سلكت طريق الحق والعدل بين شرائع الأديان السماوية ، فشريعة موسى قالت : العين بالعين ، وشريعة عيسى قالت : «لا تقاموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر» أما شريعة الإسلام فقد سلكت طريقاً وسطاً حيث دعت إلى مقابلة المسيء بمثل إساءته مع ترجيح العفو وبيان أجره وثوابه عند اللّه . أما العفو المفرط كما هو عند النصارى فهو يجرىء المعتدين على اعتداءاتهم ويجعل لهم طمعاً في جماعة المؤمنين ، ويجعل ليد الشر سلطاناً على قيم الحق والخير .

فيها ويعتدون على الناس بغير الحق ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذابٌ شديد موجع في الآخرة وهو عذاب النار ، ويضيف القرآن قوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي ومن صبر على الأذى وعفا عن الإساءة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ[1] الأُمُورِ ﴾ أي ذلك من الأمور التي يجب أن يأخذها الإنسان مأخذ الجِدِّ أو الصبر أو الفعل .

ثم يبين القرآن مصير الضالين في الآخرة وما يتمنونه من رجوع إلى الدنيا لسلوك الطريق القويم الذي ينجيهم من عذاب الآخرة :

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤٤) .

أي من خذله اللّه بسبب كفره وعناده وبُعده عن طريق الرشاد فليس له من ناصر يتولاه بعد إضلال اللّه إياه ، واللّه سبحانه يضل من فسدت جبلته وساءت أفعاله ، وقد أشار القرآن إلى أن الإضلال يكون من اللّه عن سابقة استحقاق لمن تمادى في الكفر والظلم كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُضِلّ اللَّهُ الظَّالمين ﴾ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقين ﴾ .

ثم يقول سبحانه في تتمة الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي وترى يا محمد الكافرين باللّه يوم القيامة لما عاينوا العذاب ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ إنهم يقولون : هل تتاح لنا الفرصة يا رب للرجوع إلى الدنيا ثانيةً كي يتبدل سلوكنا ونعود للإيمان والعمل الصالح ، إنها صرخة اليائسين ، تَلْمِسُ في خطابهم التلهف والحسرة ، ولكن لا سبيل إلى العودة أو النجاة .

(١) العزم : هو الصبر أو الجِدُّ أو إرادة الفعل .

ثم يصف القرآن حال الكفار في جهنم وما هم عليه من ذل وعذاب :

- ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمنوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ (٤٥) .

والمعنى : وتراهم يا محمد يعرضون على النار خاضعين ساكنين من الذل بعد أن كانوا في دنياهم متكبرين ﴿ يَنْظُرونَ مِنْ طَرْفٍ خَفيٍّ ﴾ ، يسارقون النظر إلى النار من شدة الخوف ، وقال المؤمنون وهم في الجنة لما رأوا ما حل بالكفار من خزي : ﴿ إنّ الخَاسِرينَ الّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وَأَهْليهم يَوْمَ القيامة ﴾ أي هؤلاء الكفار خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المخلد في النار كما خسروا أهليهم ، لأن الأهل إن كانوا يشاركونهم في العذاب فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بين هؤلاء الكفار وبين أهلهم ﴿ ألا إنَّ الظَّالِمينَ في عَذابٍ مُقيم ﴾ ألا إن الكافرين في عذاب دائم لا يزول ولا يخف .

وفي هذا الجو الرهيب تتوجه الآيات التالية إلى الكفار في عهد النبي تدعوهم إلى الاستجابة لدعوة النبي ﷺ رحمةً بأنفسهم قبل أن يحل بهم العذاب يوم القيامة :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرونَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ . اسْتَجِيبوا لِرَبكُم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مردَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (٤٦ - ٤٧) .

فاللَّه يقول: وما كان لهؤلاء الكفار ﴿ مِنْ أَولِيَاء ﴾ أي من أعوان وأنصار ﴿ يَنْصُرونَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يمنعونهم من عذاب اللَّه وينقذونهم منه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أي ومن يخذله اللَّه عن طريق

الحق بسبب كفره فليس له من طريق للوصول إليه وليس له طريق ينجيه من سوء المصير ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبكم ﴾ أجيبوا أيها الناس داعي اللَّه محمداً بما دعاكم إليه من الإيمان والطاعة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة حيث لا شيء يرد مجيئه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأ يَومَئِذٍ ﴾ ويومها ليس لكم من ملجأ ينجيكم من العذاب إذا ظللتم على كفركم ﴿ وَمَا لَكُم مِنْ نكِيرٍ ﴾ ولا تستطيعون إنكار ما اقترفتموه من آثام لأنها مدونة في صحائف أعمالكم وتأتي النكير بمعنى التغيير ، أي لا تقدرون على تغيير ما يحل بكم من عقاب اللَّه يومئذٍ ولا على الانتصار منه .

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً
فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ
﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ
مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ
إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۖ مَا كُنتَ تَدْرِى
مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

شرح المفردات

يُزوّجهم ذُكراناً وإناثاً : أي يهب الذكور والإناث معاً مجتمعين .
وَحْياً : إلهاماً، أو قذفاً في القلب، أو رؤيا في المنام .
وَرَاءِ حجَاب : أي يسمع كلام اللّه دون أن يراه .
رَسُولاً : ملكاً من الملائكة .
رُوحاً مِنْ أمْرِنَا : هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الأرواح للأبدان .
مَا الكِتَاب : أي ما هو القرآن .
صِراطٍ مُستقيم : دين قويم وهو دين الإسلام .

تابع سُورَة الشُّورَى

ثم يحدد القرآن مهمة النبي ﷺ في قومه وهي إبلاغهم هدى اللّه ، مع إعطاء صورة عن طبيعة الإنسان أمام ما يصيبه من أحداث :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ البَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم فَإِنَّ الإِنْسَان كَفُورٌ ﴾ (٤٨) .

فإن أعرض هؤلاء المشركون عن الإيمان الذي جئتهم به يا محمد ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ فاللّه لم يرسلك يا محمد رقيباً ومهيمناً على أعمالهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ البَلاغُ ﴾ ما عليك إلاّ أن تبلغ قومك ما أُرسلت به من الهدى ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ فاللّه إذا أعطى الإنسان في الدنيا نعمةً من رزق ومال وصحة فرح بها وَعَظُم غروره ، وهذه النعم لا تساوي في الحقيقة شيئاً يسيراً من نِعَمِ الآخرة ولذلك سماها اللّه ذوقاً لسرعة انقضائها ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ وإن يصبهم ما يسوءهم من مرض وبلاء وشدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهم ﴾ بما صدر منهم من السيئات ﴿ فَإِنَّ الإِنْسَان كَفُورٌ ﴾ أي جحود لنعم ربه ، والكفور الذي يكون مبالغاً في الكفران .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مدى عظمة القدرة الإلٰهية التي تملك السماوات والأرض وتهب لمن تشاء الذكور أو الإناث .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٤٩ ـ ٥٠) .

فاللَّه أراد أن يُعْلم الإنسان أن للَّه وحده ملك السماوات والأرض حتى لا يغترّ الإنسان بما في يده من مال وعقار أو جاه وعافية وسوى ذلك ، وليعرف قدره الحقيقي فلا يطغى ويتكبر على عباد اللَّه ، وهو سبحانه ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لا يقدر أحد أن يعترض عليه في ملكه وإرادته ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إناثاً ﴾ أي يخص البعض بالإناث ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ ويخص البعض بالذكور ﴿ أو يُزَوِّجُهُم ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ أو يعطي سبحانه من يشاء الصنفين معاً ذكوراً وإناثاً ، والتزويج هنا معناه : الجمع بين البنين والبنات ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ أي يحرم الذرية بعض الناس ، والعقيم الذي لا يولد له ولد . والتعبير بـ (يَشاءُ) التي تكررت توحي للإنسان بأن يُسلم أمره لمشيئة اللَّه التي تعطي لحكمة وتمنع لحكمة ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ إنه سبحانه ذو علم بما يخلق وعلمه محيط بكل شيء ، وهو القادر على خلق ما يشاء . هذه الآية فيها توجيه للمؤمنين بأن لا يكتئبوا أو يتشاءموا من نسائهم عندما يرزقون بالبنات، فالولد هو هبة من اللَّه سواء أكان ذكراً أم أنثى ولا دخل للزوجة في نوع الجنين من قريب أو بعيد وهذا ما أثبته الطب ، أما العقم فقد تصاب به المرأة كما يصاب به الرجل .

ولما كانت السورة افتتحت بالكلام عن الوحي عادت هنا لتوضح كيفية الوحي الذي أوحاه اللَّه إلى أنبيائه وأنواعه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاّ وَحْياً أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٥١) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾[1] وهو

(١) الوحي : لغة الإشارة والكتابة والرسالة ، والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك . وأصل الوحي في اللغة : إعلام في خفاء . أما الوحي في عُرف الشرع فهو ما يلقيه اللَّه إلى أنبيائه ورسله ما يريد أن يعلموه من المعارف الدينية .

الإلهام ، أو القذف في القلب ، أو الرؤيا في المنام ﴿ أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وهو أن يسمع كلام اللَّه من حيث لا يراه كما كلَّم اللَّه موسى عليه السلام ﴿ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يُرسل اللَّه رسولاً من الملائكة تُرى ذاته ويُسمع كلامه من قِبَلِ ذلك النبي ، كتبليغ الملك جبريل للنبي محمد ﷺ ما ألقاه إليه من الوحي وبلّغه إياه ، والهاء في (بإذنه) تعود إلى اللَّه سبحانه أي فيوحي ذلك الملاك إلى النبي بإذن اللَّه ما يريده اللَّه سبحانه . ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ إنه سبحانه ذو علوّ على كل شيءٍ ومتعالٍ عن صفات النقص ، حكيم في كل أفعاله .

وبعد الكلام عن مراتب الوحي يختم اللَّه هذه السورة بما بدأها بالكلام عن الوحي الذي خص به رسوله محمداً ، وما يتصف به هذا الوحي من خصائص مميزة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا في السَّماواتِ وَمَا في الأَرْضِ ألا إِلَى اللَّهِ تَصيرُ الأُمُورِ ﴾ (٥٢ ـ ٥٣) .

فاللَّه يقول : وكذلك ، أي ومثل الذي أوحينا إلى الرسل قبلك يا محمد ، أوحينا إليك ﴿ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أي وحياً من أمرنا وهو القرآن الذي هو للقلوب والنفوس بمنزلة الروح للأبدان .

فاللَّه سبحانه جعل القرآن (رُوحاً) لأنه يحيي به نفوس الخلق ، فله أثر الأرواح على الأجساد، فكما أن الجسم يفقد خاصية الحياة عندما تفارقه الروح وينتابه التحلل والفساد ، فكذلك المجتمع الإنساني يفسد

ويفقد خاصية البقاء عندما يُعرض عن روحانية القرآن ، وأكبر مثال على ذلك أولئك العرب الساكنون في شبه جزيرة العرب الذين كانوا قبل نبوة محمد ﷺ ونزول القرآن مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية أو قومية يتناحرون لأوهى الأسباب ، ويستحلون الفواحش ، يعتدي القوي على الضعيف ، ويأكل الغني مال الفقير بالربا الفاحش ، لا سلطان لكلمة الحق فيهم بل السلطان كله للزعامات التقليدية القائمة على الأنساب التي لا تعرف إلاّ مصالحها الذاتية ، هؤلاء العرب انقلب حالهم بعد مجيء القرآن والعمل بمبادئه إلى أمة موحدة تأخذ بمكارم الأخلاق وتتحلى بالقيم السامية ، ثم لم تلبث أن بسطت سيادتها على الأمم المجاروة التي تفوقها قوة وعدداً ، فنشرت راية الحق والعدل بين الناس مما كان له أطيب الأثر عند هذه الأمم التي سارعت إلى اعتناق الإسلام عن طواعية تظللهم جميعاً أخوة الإسلام ، وقد تم ذلك في فترة لا تصدق في حدود ربع قرن تقريباً .

﴿ ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ﴾ أي ما كنت تدري يا محمد ما هو القرآن وما هي أسس الإيمان وصفات اللّه ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدي به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي ولكن جعل اللّه القرآن نوراً يهدي اللّه به من يشاء من عباده ممن اختار الهدى . فاللّه شبه القرآن بالنور من باب الاستعارة بمعنى الهدى ، لأن النور مشاهد محسوس بالبصر يهتدي به السائر على الطريق المقصود في الظلمات ويحصل به الإنسان على ما يبتغيه من نفع ، فكذلك القرآن هو نور في ظلمات هذه الحياة يسترشد به الإنسان الطريق الصحيح المؤدي إلى سعادته في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وإنك لتهدي يا محمد بهذا القرآن إلى طريق مستقيم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذي لَهُ ما في السَّماوات وَمَا في الأَرْضِ ﴾ أي

طريق اللّه الذي له وحده ملك السماوات والأرض خلقاً وتدبيراً ﴿ ألا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورِ ﴾ ألا إلى اللّه تصير أموركم أيها الناس في الآخرة فيقضي بينكم بالعدل ويكافيء المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته .

سُورَةُ الزُّخْرُف

بدأت هذه السورة ببيان منزلة القرآن عند الله ، وموقف المستهزئين بالرسالات الإلهية ، ثم ساقت السورةُ أدلةً على وحدانية الله ، ولكن المشركين رفضوا هذه الأدلة ، وظلوا على عبادتهم للأصنام والملائكة .

ثم تَحدَّثت السورة عن تبرؤ نبي اللَّه إبراهيم من قومه بسبب عبادتهم الأصنام ، كما تحدثت عن تعجب كفار مكة من نزول القرآن على محمد ﷺ ، وهو الفقير ، وعدم نزوله على عظيم من عظماء المدينتين : مكة والطائف .

ثم قرَّرت السورة أنه لولا كراهة أن يكفر الناس جميعاً لأعطى اللَّه الكافر كل ما في الدنيا من متاع وزخرف ومال لأنها متاع زائل ، أما الآخرة فإن اللَّه يعطيها للمتقين خاصة .

ثم بيَّنت السورة أن من يُعرض عن ذِكْر اللَّه يُسَلّط اللَّه عليه شيطاناً يقوده إلى الهلاك .

كما تَعرض السورة قصة موسى وفرعون ، وغرور فرعون بملكه ، وكفره ، وما نزل به وبقومه من هلاك جزاء كفرهم ، كما أتبعت السورة الحديث عن عيسى عليه السلام ، وما أيَّده اللَّه به من المعجزات الواضحات ، وما أعطاه من الحكمة ، ولكن النصارى اختلفوا في أمره بعد موته وادعوا أنه إلّه مع أنه رسول من رب العالمين .

ثم تنتقل السورة إلى التحذير من عذاب يوم القيامة الذي أعده اللَّه للمجرمين ، كما أنها ساقت البشرى للمؤمنين المتقين بما أعد اللَّه لهم من نعيم .

سُورَةُ الزُّخْرُف

مكية ، وآياتها تسع وثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

شرح المفردات

والكِتَاب : الواو واو القسم ، أي قَسَماً بالكتاب الذي هو القرآن الكريم .
الْمُبِين : الواضح في إرشاده المبين لطريق الهدى .
لَعَلَّكُم تَعْقلون : لكي تفهموا معانيه .
أمِّ الكتاب : أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي هو مستودع مشيئات الله .
لَعَلِيٌّ : أي هذا القرآن ذو رفعة وشرف بين الكتب السماوية .
أَفَنَضْرِبُ عنكم الذِّكْر صَفحاً : أفنترك تذكيركم بالقرآن إعراضاً عنكم .
كَمْ أرسَلْنا : مَا أكثر ما أرسلنا ، وكم حرف يفيد الكثرة .
في الأولين : في الأمم السابقة .
بطشاً : قوةً وجبروتاً .
وَمَضَى مَثَلُ الأوَّلين : وسبق ذكر ما حلّ بالأولين العاصين ما أصبح مثلاً يُضرب .

مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾
وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ
﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

شرح المفردات

مَهْداً : ممهدة مبسطة يسهل العيش عليها .
سُبُلًا : طرقاً .
مَاءً بِقَدَرٍ : بقدر ما تحتاجه الأرض وما عليها من أحياء .
فَأَنْشَرْنَا : فأحيينا .
تُخْرَجُون : أي تخرجون من قبوركم أحياء للحساب .
الفُلْك : السفينة .
الأنعام : الإبل وكل ما يركب من حيوان .
سخَّر : ذلَّلَ وأخضع .
وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرنين : وما كنا على تسخيره قادرين أو مطيقين .
لَمُنْقَلِبُون : لراجعون .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ايضـــاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بالكلام عن القرآن وما فيه من مزايا عالية :

﴿ حَمٓ . وَالكِتَـابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّـا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّـهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَـدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ . أَفَنَضْـرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْـرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ ﴾(١ - ٥) .

﴿ حَمٓ ﴾[1] : حرفان من حروف الهجاء وفيهمـا إشارة إلى أن القـرآن المعجز بأسلوبه وهديـه هو مؤلف من الحـروف التي بها يتكلم العـرب مثل هذين الحرفين ، ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله عنـدما تَحـدَّاهم القرآن بذلك وهم فرسان البلاغة ، وأمراء البيان ، فعجزهم عن الإتيان بمثله دليل واضح على أن القرآن وحي إلّهي .

﴿ وَالكِتَـابِ الْمُبِينِ ﴾ الواو : هي واو القسم ، والكتـاب المقصود بـه هــو القـرآن . ومعنى المبين : أي الــذي أبـان طــرق الهـدى من طــرق الضلالة ، كما أبان الحق من الّباطل ، والحـلال من الحرام ، فـاللّه أقسم بالقرآن المبين لتعـظيمه وبيـان أهميته ، ولفتـاً للأنـظار إليه لتـدبُّر معـانيه ، والعمل بهديه .

---

(١) حم : للمفسرين آراء شتى في تفسير ذلك ، فقال بعضهم إسم من أسماء اللّه تعالى ، وقيل إسم من أسماء القرآن . وقيل : الحـاء افتتاح أسمـاء اللّه حميد ، حنـان ، حليم ، حكيم . والميم افتتاح أسمائه : ملك ، مجيد ، منان ، متكبر . وقال بعض المحدثين إن هـذين الحرفين يتكـرران أكثر من سـواهما في هـذه السورة وأكثـر عدداً من غيـرهمـا من الحروف وقد استعان لتقرير دعواه بالكمبيوتر . وقيل غير ذلك واللّه أعلم .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذه الآية جواب القسم بالقرآن ، فاللَّه أنزل القرآن بلغة العرب ليعقلوا معانيه ، ويفهموا مراميه . ﴿ وَإِنَّهُ في أمِّ الكِتابِ ﴾ أي أن أصل القرآن هو أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي هو مستودع مشيئات اللَّه وكل العلوم منسوبة إليه . ﴿ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي أن القرآن عند اللَّه رفيع القدر بين الكتب السماوية ، وذو حكمة بالغة يهدي إلى طريق الرشاد .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنْتُم قَوْماً مُسْرِفِينَ ﴾ أفنضرب عنكم : أي أنعرض عنكم ؟ وهو استفهام للإنكار والتوبيخ . والذكر : المراد به القرآن ، أو العذاب ، والمعنى : أنعرض عنكم ونمسك عن إنزال القرآن من أجل إنكم أسرفتم في كفركم ، لا ، لن يكون ذلك أبداً بل لا بد من تذكيركم لإقامة الحجة عليكم . وقد يكون المعنى : أنرد عنكم عذاب اللَّه ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ، لا بل سنعاقبكم على كفركم .

ويتابع القرآن فيذكر تهديد اللَّه بالعذاب للذين يسخرون بما جاء به الأنبياء من الهدى :

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ في الأَوَّلِينَ . وَمَا يأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٦ - ٨) .

فالله تعالى يقول : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء إلى الأمم السالفة ، وما يجيئهم نبي من عند اللَّه ليرشدهم إلى طريق الحق إلّا كانوا به يسخرون ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً ﴾ أي فأهلك اللَّه قوماً كانوا أشد قوة من كفار قريش ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي وسبق أن تحدث القرآن عن أنواع العذاب الذي أصابهم مما جعلهم عبرة لغيرهم .

في هذه الآيات تطمين لمحمد ﷺ وعزاء لآلامه مع قومه ؛ فكأن اللَّه يقول له : إن ما تلاقيه من قومك من إعراض وسخرية قد لاقاه الأنبياء قبلك من قومهم ، فكان مصيرهم الهلاك ، كما أن في هذه الآيات تهديداً لكفار قريش من أن يكون مصيرهم كمصير الأمم السابقة التي كذبت أنبياءها .

ثم ينتقل القرآن إلى تصحيح معتقدات العرب في شأن الألوهية ، فقد كان كثير منهم قبل الإسلام يقرّون بوجود إلّه واحد خلق الكون ، ولكنهم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لتقربهم إلى الله ، ويقدسونها تقديساً يجعلها في حكم الشركاء للَّه :

﴿ وَلَئِنْ[1] سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ (٩) .

والمعنى : وأقسم إن سألت أيها النبي كفار قومك عمن خلق السماوات والأرض ليقولن - جواباً على ذلك - خلقهن الله العزيز الغالب الذي لا يُغلب ، العليم بكل شيء .

فإذا كان اللَّه وحده هو خالق السماوات والأرض باعتراف المشركين فلا معنى لاتخاذ شريك له في العبادة .

ويتابع القرآن فيلفت الأنظار إلى خلق اللَّه للأرض وما فيها من طرق تشهد بعظمة التدبير الإلّهي :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠) .

فاللَّه جعل الأرض مهداً ، والمهد في الأصل هو الفراش الذي يهيأ

---

(١) ولئن : اللام لام القسم .

للصبي ،- فـاللَّه سبحانـه جعل الأرض ممهـدة يسهـل العيش عليهـا كمهـد الصبي ، فلم يجعل طبيعتها كطبيعة القمر الذي يتكون من نتوءات وبراكين وصخور لا تصلح لسكنى الإنسان ، كما أن اللَّه جعل في الأرض (سبلاً) أي طُرقاً ليسير عليها الإنسان بيسر وسهولة في تنقلاته ، وقـد طوّر الإنسـان هذه الطرق ومهدها مما يشهد بنعم اللَّه الفائقة على الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ نبـوءة من نبوءات القـرآن لم تظهر في أجلى معانيها إلاّ بعد قرون عديدة من نزول القرآن ، حيث شُقت الطرق وأنشئت الجسور و « الأوتوستـرادات » وتوصل الإنسان بإلهام من اللَّه إلى اختراع القاطرة والسيارة التي سهلت له التنقل في هذه الأرض بواسـطة هـذه الطرق التي أصبحت من مـظاهر حضـارة الإنسان . ثم يـأتي التعقيب القـرآني على هـذه الـطرق : ﴿ لَعَلَّكُم تَهْتَـدُونَ ﴾ أي كي تهتـدوا إلى الأمكنة التي تقصدونها ، أو لعلكم تعرفون نعمة اللَّه عليكم .

ويتابع القرآن فيذكر فضل اللَّه على الإنسان بإنـزال المطر الـذي يحيي به الأرض بعد موتها ، مستطرداً إلى ذكر إحياء اللَّه للموتى يوم الحساب :

﴿ والَّـذي نَزَّل مِنَ السَّمَـاءِ مَاءً بِقَـدَرٍ فَـأَنْشَـرْنَـا بِـهِ بَلْدَةً ميْتـاً كَـذَلِـكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١١) .

فـاللَّه سبحـانـه أنـزل من السمـاء ﴿ مَـاءً بِقَـدَرٍ ﴾ أي بمقـدار وكميـة محدّدة ، فلو كان الماء الذي ينزل من السماء فوق حاجة الأرض ، وحاجة ما عليها من نبات وحيوان لأحدثت سيولاً تتلف كل شيء ، وهذا من حكمة اللَّه العظيمة التي تقدِّر لكل شيء قَدْرَ ما يحتاجه ﴿ فَأَنْشَرْنَـا بِهِ بَلْدَةً ميتـاً ﴾ أي أحيا اللَّه بهذا المطر بلدة لا حياة فيها . ما أصدق هذا الوصف للأرض حين جفـافها حيث يـذوي كل نبـات على سـطحهـا ، وتتشقق بفعـل هـذا

الجفاف ، ويهجرها كل حيـوان وطير وإنسـان ، وتصبح الأرض مـواتاً غيـر صالحة للحيـاة ، ولكن بعد نـزول المطر تـدبُّ الحياة في الأرض ، فينبت النبات ، وتورق الأشجار وتثمر ، وتصبح الأرض مرتعـاً للإنسـان والحيوان والطير .

ثم تـأمل في هـذه النتيجة التي خَلُص إليهـا القرآن بعـد نـزول المـطر وإحياء الأرض ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُـونَ ﴾ أي كذلـك تُخرجـون أيها النـاس من قبـوركم يوم القيـامة للحسـاب والجزاء . فـالبعث الذي كـان ينكـره بعض العـرب قبـل الإسـلام يُقـرِّبُـهُ القـرآن إلى الأذهـان بهـذه الصـورة الجليـة الواضحة ، فالقادر على إحياء الأرض هو بالأحرى قادر على إحياء المـوتى من الناس ، لأن الإنسان خلقه اللَّه من تراب ، ومكونات جسمه من النبات الذي يتغذى من التراب .

ويتـابع القـرآن فيذكـر فضل اللَّه على الإنسـان بخلقه أصنـاف النبـات والحيوان وما يسّر للإنسان من أدوات الركوب :

﴿ والَّـذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَـا وَجَعَـلَ لَكُـمْ مِنَ الْـفُلْكِ وَالأَنْـعَـامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُـروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَـوَيْتُم عَلَيْهِ وَتَقُـولوا سُبْحَـانَ الَّذي سَخَّـرَ لَنَا هَـذَا وَمَا كُنَّـا لَهُ مُقْـرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَـا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾(١٢ - ١٤)

فـاللَّه سبحانـه ﴿ خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ والأزواج هي المخلوقـات التي تتكون وتتكاثر من ذكرٍ وأنثى ، ولفظ (كلها) يوحي بـالتعميم ، فبالإضـافة إلى أن الزوجية تعم الناحية النباتية والحيوانية ، فقد كشف لنا العلم أن كل ذرة من أي عنصر من عناصر الكون تحوي قلباً صغيراً يسمى النواة ، وهذه النـواة تحـوي وحـدتين أسـاسيتين من وحـدات البنـاء وهمـا : البـروتـون

والنيوترون .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾[1] أي جعل اللّه من السفن ما تركبونه في البحار إلى حيث قصدتم السفر ، وجعل لكم من الإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبونه في البر ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ أي لتستقروا على ظهور مركوب البحر والبرّ ﴿ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ ﴾ أي ثم تتذكروا نعمة اللّه عليكم بتسخيره ذلك لكم ، وهذا توجيه لقلوب الناس ليشكروا نِعَم اللّه عليهم كلما استقروا على مركوب ما ﴿ وتقولوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أي تقولوا عند الركوب : تنزَّه اللّه وتقدَّس الذي ذلَّل لنا هذا المركوب ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي وما كنا قادرين ولا مطيقين ركوبه وتذليله لولا أن سخَّره اللّه لنا ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ وإنا إلى ربنا بعد موتنا لراجعون إليه . فالإنسان مهما سافر وانتقل في ميادين الأرض ، فالمرجع والمنقلب إلى اللّه ، وهذا تذكير للإنسان بالمصير الذي ينتظره بعد الموت حتى لا يطغى ويتعدى الحدود التي رسمها اللّه له .

(١) هذه هي وسائل الركوب التي كانت في عهد نزول القرآن منذ أربعة عشر قرناً ذكرها القرآن لبيان فضل اللّه على الإنسان . وقد استحدث الإنسان أدوات أخرى للركوب كالقطار والسيارة والطائرة ، لقد صنعها الإنسان بما وهبه اللّه من عقل . وبما أن العقل من صنع اللّه فالمصدر واحد مهما تنوعت أدوات الركوب ، وهذا المصدر هو اللّه سبحانه .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

شرح المفردات

جُزْءاً : نصيباً .
وأصْفَاكم : اختصكم وآثركم .
بما ضَرَب للرحمٰن مَثَلاً : بما مُثِّلَ لِلَّه من أن له بنات .
كظيم : مملوء غماً وحزناً .
يُنَشَّأُ في الحِلْيَة : يُربى ويشب في الزينة والنعمة وهن البنات .
في الخِصَام غَيْرُ مُبين : ضعيف الحجة في النزاع والخصام .
يَخْرصُون : يكذبون .
نَذِير : نبي يحذرهم عصيان ربهم .
مُتْرَفُوهَا : متنعموها الذين أبطرتهم النعمة .
على أُمَّةٍ: على دين.

* قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ
مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ
بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ
حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا
سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

بَرَاءٌ : بريء .
فَطَرَني : خلقني .
كَلِمَةً بَاقِيَةً : كلمة توحيد الله (لا إله إلاّ الله) .
عَقِبِه : ذريته .
مَتَّعْتُ هَؤُلَاء : أي أهل مكة بأن مدَّ لهم في الحياة مع إسباغ النعم وتجنيب النقم .
جَاءَهُمُ الحق : جاءهم القرآن .

تابع سُورَة الزُّخْرُف

ثم ينتقل القرآن إلى تفنيد بعض المعتقدات الباطلة التي كانت في أذهان العرب قبل الإسلام كاعتقادهم أن الملائكة هن بنات اللّه :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَ مَن يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وَهُوَ في الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (١٥ ـ ١٨) .

فالمشركون جعلوا من بعض عباد اللّه جزءاً ونصيباً منه حيث قالوا إن الملائكة هم بنات اللّه ، فكما أن الولد هو جُزء من أبيه فكذلك اعتبروا الملائكة جزءًا من اللّه وبالتالي هن بناته ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ إن من يقول هذا القول لجاحد باللّه واضح الكفر ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ لقلة عقولهم حيث زعموا أن اللّه اتخذ لنفسه البنات ﴿ وَأَصْفَاكُم بِالبَنِينَ ﴾ وخصكم أيُّها الكافرون بالبنين ، فمع أن الولد محال صدوره من اللّه فهو سبحانه لو أراد أن يتخذ ولداً لاختار جنس الذكورة ، أما ادعاؤهم بأنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده فيلزم أن يكون الإنسان أكمل وأفضل من اللّه وهذا مرفوض في بداهة العقل . ﴿ وَإِذَا بُشِّر أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ للرَّحْمٰنِ مَثَلاً ﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بولادة بنت له كالبنات اللاتي نسبهن إلى اللّه ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ صار وجهه مسودًّا من الكآبة وهو حزين لكراهيته البنات ، فكيف بهم ينسبون إلى اللّه ما يمقتونه لأنفسهم . ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ ، والمعنى : أَوَ جعلوا لله البنات اللاتي يربين في الزينة والنعمة ، فالأنثى من طبيعتها التزيّن لاستمالة الجنس الآخر نحوها لأنها

لا تشعر بالأمان إلاّ بحماية الرجل لها ﴿ وَهُوَ فِي الخِصَام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي أن الأنثى في النزاع والمجادلة ضعيفة الحجة غير قادرة على تقرير دعواها ، فالأنثى تحكمها العاطفة فلا تنتصر على الخصم بالبرهان والحجة[1] فهل هذه الصفات في الأنثى يمكن أن تضفي عليها صفات الألوهية وتنسب إلى الله ؟

ثم يطلب القرآن من المشركين الدليل على أن الملائكة من جنس الإناث :

﴿ وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١٩) .

فالله يقول إن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عباده من جنس الإناث وَادَّعَوْا أنهم بنات الله ، فهل شهدوا خلقهم ورأوا ذلك بأعينهم ، والجواب بالنفي ، فهذه الشهادة الباطلة منهم لا تستند إلى دليل ﴿ سَتُكْتَبُ شَهادتهم ويُسْأَلون ﴾ ستكتب هذه الشهادة في كتاب أعمالهم وسيسألون عنها يوم القيامة ويحاسبون لأنها شهادة زور وبطلان .

ثم يحكي القرآن عن لسانهم ما يتعللون به لعبادتهم الملائكة والأوثان :

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢٠ ـ ٢٢) .

---

(١) هذه الصفة هي الغالبة لهن وإن كان من الإناث من هن متفوقات في العقل والكمال الإنساني .

فهؤلاء المشركون يقولون : لو شاء الرحمٰن ما عبدنا الأوثان والملائكة ، وهم لا يستندون في هذا القول إلى علم ما ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي إنما يقولون ذلك كذباً وبهتاناً ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي هل وجدوا ذلك الزعم الباطل في كتاب منزّل من عند اللّه قبل القرآن ﴿ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ فهم يأخذون بما فيه ويعولون عليه ، وليس لهم دليل يستندون إليه إلاّ التقليد الأعمى للآباء ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ أي لم يأتوا بدليل على ادعائهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين وملة ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وإننا متبعون لهم ومقلدون .

ثم يبيّن القرآن أن أشد الناس تقليداً للآباء هم المترفون لأن في ذلك استمراراً لما هم عليه من الترف :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون ﴾ (٢٣) .

أي وكما فعل المشركون من قريش فعل قبلهم أهل الكفر من الأمم السابقة ، فلم يرسل اللّه قبل محمد إلى أهل قرية ضالة نبيًّا ينذرهم ويخوفهم عاقبة كفرهم إلاّ قال المترفون من أهل تلك القرية الذين أبطرتهم النعمة ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أي إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ وإنّا على منهاجهم وطريقتهم متبعون مقلّدون .

فالتقليد صفة مشتركة بين الأمم ماضيها وحاضرها وعندما تتشبث الأمة بالتقليد تغلق على نفسها منافذ العقل والنظر فلا تفكر ولا تهتدي . فالتقليد من آفات الأمم وسبب ضلالها وجمود الفكر فيها ، فالشعب المقلد لآبائه تقليداً أعمى لا يستجيب لأي دعوة إصلاحية ، ولا يتطور نحو الأحسن في

مجـال العيش ، ويعـظم الخـطر إذا كـان الآبـاء منغمسين بـالفـواحش والمنكرات وسار الأبناء على سيرة آبائهم .

ثم يـأتي بعد ذلـك تهديـد اللّه بالعـذاب للمقلدين آباءهم في البـاطل الذين اختاروا الكفر على الهدى بعد إقامة الحجة عليهم :

﴿ قـال : أَوَلَوْ جِئتُكُمْ بِـأَهْدَى مِمَّـا وَجَدْتُمْ عَلَيْـهِ آبَاءَكُمْ قَـالُوا إِنَّـا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِـهِ كَـافِـرُونَ . فَـانْتَقَمْنَـا مِنْهُمْ فَـانْـظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَـاقِبَـةُ المكَذِّبِينَ ﴾ (٢٤ـ٢٥) .

فالآية تـطرح عليهم سؤالاً على لسان النبي : لـو أتيتكم بما هـو أهدى ممـا وجدتم عليـه آباءكم من الضـلال ألا تتبعونـه؟ لقد كـان المفروض أن يستجيبوا لنداء العقل ولكنهم أَصروا على كفرهم وقالوا كما قـال الذين من قبلهم من الأمم لـرسل الله : ﴿إِنَّـا بِمَا أُرْسِلْتُم بِـهِ كَـافِـرُونَ﴾ أي إننـا بمـا أرسلتم به من أمور الـدين جاحـدون منكرون . وهؤلاء انتقم الله منهم كمـا تقول الآية ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ وذلك بإحـلال العقوبـة بهم ﴿فَانْـظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَـذِّبِينَ ﴾ فانـظر يا محمـد كيف كان مصيـر المكذبين لـرسل اللّه المتبعين آباءهم على الكفر والضلالة ، وليحذر قومـك أن يحل بهم مـا حل بالأمم السالفة من عقاب اللّه .

ويتـابع القـرآن فيذكـر أن الدعـوة إلى توحيـد اللّه ونبذ عبـادة الأصنام ليست دعوة جديدة يقوم بها محمد ﷺ بل سبقه إليها نبي اللّه إبراهيم عليـه السلام :

﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ إِنَّنِي بَـرَاءٌ مِمَّـا تَعْبُـدُونَ . إِلاَّ الَّـذِي فَـطَرَنِي فَـإِنَّـهُ سَيَهْـدِينِ . وَجَعَلَهـا كَلِمَـةً بَـاقِيَـةً فِـي عَقِبِـهِ لَعَـلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٦ـ٢٨) .

أي واذكر يا محمد للمشركين من قومك كيف قال إبراهيم لأبيه وقومـه : إنني بـريء من عبادة آلهتكم البـاطلة ﴿ إِلاَّ الَّذِي فَـطَرَنِي فإنـه سَيَهْـدِينِ ﴾ فـإني لا أعبد إلاّ اللّه الـذي خلقني فإنـه سيرشـدني للدين الحق ، ويوفقني لاتبـاع سبيل الـرشد ﴿ وَجَعَلَهَـا كَلِمَةً ﴾ أي وجعـل كلمة التـوحيـد وهي : لا إله إلاّ اللّه ﴿ بَاقِيَـةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أي بـاقية في ذريتـه حيث وصاهم بهـا ، ومن ذريته آل محمد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يـرجعون إلى طـاعة ربهم ويتوبون من كفرهم وذنوبهم .

هذه هي دعوة التوحيد التي قام بها إبراهيم عليه السـلام ، ولكن مرور الـزمن طمس هـذه العقيـدة في قلوب كثيـر من النـاس بمـا ابتـدعـه دعـاة البـاطل ، ولهـذا أرسـل اللّه رسـولـه محمـداً بـالـدين الحق مجـدداً دعـوة إبراهيم :

﴿ بَـلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَـاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ . وَلَمَّـا جَاءَهُمُ الْحَـقُّ ، قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٢٩ ـ ٣٠) .

فاللّه يقول بأنه متَّع هؤلاء المشركين من قوم محمد بالحياة وأنواع النعم كما متع آباءهم من قبلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة عى كفرهم حتى ﴿ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ هو محمد ﷺ واضح الرسالة مبين التـوحيد بـالحجج البـاهرة ، ولكن لمـا جاءهم الحق ﴿ قَـالُوا : هَـذَا سِحْـرٌ ﴾ أي قالـوا إن هذا القـرآن هو سحـر وليس وحياً من اللّه ﴿ وَإِنَّـا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وأنهم به جاحدون له ومنكرون .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ
الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم
مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا
أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا
مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا
عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ
وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ
شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ

شرح المفردات

القريتين : المراد بهما الطائف ومكة .
أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَة ربِّك : أهم الذين يوزعون النبوة فيضعونها حيث شاؤوا .
لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا : ليستخدم بعضهم بعضاً في العمل .
مَعَارِجَ عَلَيْها يَظْهَرون : مصاعد عليها يعلون .
سُرُراً : جمع سرير وهو ما يضطجع أو يجلس عليه .
زُخْرُفاً : ذهباً وقيل نقوشاً مزينة .
لَمَّا مَتَاعُ الحَياةِ الدُّنْيَا : ما هو إلاّ ما يستمتع به أهل الدنيا من مشتهيات .
يَعْشُ : يعرض أو يتعامى .
ذِكْر الرحمٰن : القرآن ، أو ذكر الله .
نُقَيِّض لَهُ : نهيِّىء له .
قَرِين : صاحب ملازم له .
لَيَصُدُّونَهُم عَن السَّبيل : يصرفونهم عن طريق الحق والهدى (اللام للتوكيد) .

أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ
الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ
فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن
كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ
بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ
وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

بُعْدَ المشرقين : بُعد ما بين المشرق والمغرب .
فإمَّا نَذْهَبَنَّ بكَ : فإما نتوفينَّك .
وَعَدْنَاهُمْ : أي ما وعدهم اللَّه به من العذاب .
صِرَاطٍ مُسْتَقيم : طريق قويم لا عوج فيه .
وَإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلقَوْمِكَ : وإن القرآن لشرف لك يا محمد ولقومك .
وَسَوْفَ تُسألون : ستسألون على ما آتاكم اللَّه وعما عملتم .

تابع سورة الزخرف

وبعد أن وصف المشركون القرآنَ بأنه سحر أرادوا أن يضيفوا إلى رفضهم نبوة محمد سبباً آخر ، وهو أن محمداً ليس من عظمائهم وأغنيائهم حتى يتقبَّلوا منه هذا الدين الذي جاءهم به :

﴿ وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم في الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٣١ ، ٣٢) .

أي وقال المشركون : هلّا أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم[1] من إحدى القريتين : مكة والطائف ، ومحمد ﷺ كان فقيراً يتيماً ولم يكن من رؤسائهم وعظمائهم قبل البعثة النبوية . ويردّ اللّه عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أهؤلاء يقسمون رحمة ربك يا محمد بين خلقه ، فيجعلون كرامته لمن شاءوا ، وفضله لمن أرادوا ؟ أم اللّه الذي يحق له أن يقسم ذلك فيعطيه من أحب ، ويحرمه من شاء .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ في الْحَياةِ الدُّنْيَا ﴾ فاللّه يقول : نحن قسمنا بينهم الرزق في الحياة الدنيا ، فقتّرنا الرزق على قومٍ ، ووسعنا الرزق على آخرين كما قسمنا رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا ، فنجعل من نشاء رسولاً نبياً ، فإذا كان اللّه هو مقسم الأرزاق بين عباده فإن هذا المفهوم يقدم عزاءً للذين يصادفون ضيق العيش ، ويضفي عليهم يقيناً يخفف عنهم ما يعتريهم من حزنٍ وغم بسبب عدم تمكّنهم من الحصول

(١) قيل المقصود بهما : الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي .

على ما يبتغون من رزقٍ بالرغم من سعيهم للحصول عليه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي فاضلنا بينهم في القِيَم والأرزاق ، فمن خادم ومخدوم ، ومن رئيس ومرؤوس ، وحاكم ومحكوم وغني وفقير ، هذا هو ناموس الحياة ، وقد أرادت بعض الأنظمة المعاصرة أن تسوّي بين الناس جميعاً ففشلت لأن الناس يتفاوتون في المواهب العقلية والاستعدادات الجسدية . وليس من العدل أن يتساوى القادر والعاجز ، والنشيط والكسلان ؛ وإذا تساووا أصبح الكسلان يكسل ولا يخاف على مستقبله ، وأصبح النشيط لا يطمح إلى مستقبلٍ أفضل ، وبهذا يقلُّ الإنتاج ويدخل إلى النفوس فتور الهمة والاتكال على الغير . ويتابع القرآن قوله : ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا ﴾ السخريَّة هنا بمعنى الاستخدام ، فكل فرد في المجتمع هو مسخر لخدمة الآخرين والآخرون مسخرون لخدمته ، ولا تستقيم الحياة إلّا بهذا الأسلوب وهكذا يكون الناس بعضهم سبباً لمعاش بعض .

﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ﴾ الآية هنا تلفت النظر إلى أمر مهم جداً وهو إذا كان الناس يتنافسون فيما بينهم على حطام الدنيا الذي قسمه اللّه بين الناس وجعلهم فيه درجات ، فإن هناك أمراً جديراً بالاهتمام والتسابق على نيله والحصول عليه ألا وهو رحمة اللّه التي هي خير وأفضل من كل ما على الدنيا من متاع زائل ، لأن رحمة اللّه إذا أصابت إنساناً جعلته في حمى ربه فردت عنه كيد الكائدين وأسبغت عليه السعادة النفسية ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة وهو الجنة .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الآية الكريمة ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ﴾ تستحق أن يتأملها الإنسان ملياً ويقف على أبعادها ، فهي

تجعل الإنسان يتعالى عن كل شهوات الحياة ومغرياتها لأن هناك ما هو أفضل من ذلك وأعلى شأناً ألا وهو نيل رحمة اللّه التي لا يوازيها أي مغنم في هذه الدنيا ، هذه الآية تقدم العزاء والسلوى عندما يصاب الإنسان بخسارة مادية ، أو يُحرم من مغنم مادي فهناك ما هو أفضل من ذلك إذا ابتغى الإنسان في أعماله رضاء ربه وسعى إلى نيل رحمته .

وبعد أن بيّن اللّه بأنه قد قسم الأرزاق بين عباده ، بيّن الحكمة في تفاوت الناس في الثروة فقال :

﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُون . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فاللّه سبحانه يقول : ولولا أن يكون الناس أمةً واحدة على الكفر ويختاروا الدنيا على الآخرة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن في الدنيا سطوح بيوتهم من فضة ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُون ﴾ أي أن السلم أو الدرج التي يرتقون عليها ويصعدون بها إلى بيوتهم وغرفهم من فضة كذلك ﴿ وَلِبُيوتهم أبواباً وَسُرُراً عَلَيْها يتكئون ﴾ أي وأبواب بيوتهم والأسرّة التي يجلسون عليها من فضة أيضاً ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ أي ذهباً ، يعني بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، وقيل : الزخرف هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الفُرُش والأمتعة والنقوش والزينة ﴿ وإنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إن : هي نافية بمعنى : ما . ولما بمعنى : إلاّ . أي وما كل ذلك النعيم الذي ذُكر إلاّ متاع الحياة الدنيا ، والمتاع هو ما تستطيبه النفوس في هذه الحياة ويأتي عليه الفناء ﴿ وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي وثواب الآخرة وما فيها من

أنواع النعيم مُعدة للمتقين الذين اتقوا عذاب اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

فالآيات السابقة سيقت لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها وأنها لولا أن يُفتن بها الناس ويعتبروا أن الكفر مقترن بالرخاء لخص نعيمها بالكافرين دون المؤمنين لأن الآخرة وما فيها من نعيم هي للمؤمنين المتقين ربهم ، فلذلك كان من حكمة اللّه أن أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم ، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم اختباراً لجوهر الإيمان في قلوبهم . وفي الحديث الشريف المروي عن النبي ﷺ قوله : « لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء »(١) .

وبعد بيان حقيقة الفقر والغنى في الأرض وأثرهما في النفوس تنتقل بنا الآيات إلى بيان عاقبة الإعراض عن ذكر اللّه وما يؤدي إلى شقاء الإنسان :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ(٢) عَنْ ذِكْرِ(٣) الرَّحْمٰنِ(٤) نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُم أَنَّكُم في الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٦ ـ ٣٩) .

فاللّه سبحانه يقول : ومن يعرض أو يتعامى عن القرآن ، أو بمعنى :

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) يعش : العشا سوء البصر بالليل والنهار يجعل صاحبه كالأعمى ، فيكون بمعنى يتعامى ويقال عشا بمعنى تغافل وأعرض .

(٣) ذكر : الذِّكر قد يراد به القرآن لأنه يذكّر الناس باللّه والدين ، وقد يراد بالذكر الاستحضار في القلب مع التدبر .

(٤) الرحمٰن : إسم من أسماء اللّه ومعناه ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة والذي وسعت رحمته كل شيء ولا يطلق اسم الرحمٰن إلاّ على اللّه سبحانه .

من يعرض عن أن يذكر اللَّه ويستحضر عظمته ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ أي يهيىء له اللَّه شيطاناً يوسوس له ويضله فهو يصاحبه ويلازمه ﴿ وَإِنَّهُم لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وإن الشياطين ليصرفون هؤلاء عن طريق الهدى والحق ، فيزينون لهم الضلالة ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ويظنون أنهم على الحق والصواب . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا ﴾ أي فإذا جاء الكافر ربه يوم القيامة وحده أو مع قرينه الشيطان ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بيني وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشْرِقَيْنِ ﴾ أي قال الكافر مخاطباً قرينه الشيطان : يا ليت بيني وبينك من البعد مثل ما بين المشرق والمغرب . لأن المشرقين هما المشرق والمغرب ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ فبئس الصاحب كنت لي أذ أوقعتني في عذاب اللَّه ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ ولن يخفف العذاب عنكم يوم القيامة حين ظلمتم أنفسكم بالكفر ﴿ أَنَّكُم في العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي لن ينفعكم ولن يخفف العذاب عنكم كما ينفع في الدنيا تعاون الشريكين على أزمات الحياة ، لأن كلاً يعاني من العذاب ما يثقله .

ثم تأتي الآيات مخففة آلام النبي ﷺ بسبب إعراض قومه عن سماع صوت الحق . ومؤكدة بأن انتقام اللَّه سيحل بهم بسبب سوء أفعالهم .

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ وَمَنْ كَانَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَو نُرِيَنَّكَ الّذي وَعَدْنَاهُم فَإِنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٤٠ ـ ٤٢) .

والمعنى : أتقدر يا محمد أن تُسمع هؤلاء الكفار صوت الحق وهم بلغوا من النفور منك ومن دينك بحيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصمّ لا يسمعون ، وإذا أريتهم المعجزات والحجج كانوا كالعميان الذين فقدوا

أبصارهم . أتقدر يا محمد أن تهدي من سلك غير طريق الحق ومن كان في ضلالٍ واضح . لا ، ليس لك القدرة على ذلك إن الذي يقدر على ذلك هو اللَّه وحده ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ فإن نخرجنك يا محمد من مكة إنقاذاً لك من أذى قريش ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ فإنا سننتقم منهم في الدنيا والآخرة ﴿ أو نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الّذي وَعَدْنَاهُم ﴾ أو نرينك يا محمد ما وعدناهم من حلول العذاب بهم ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُون ﴾ فإننا مسيطرون عليهم بقدرتنا وقهرنا .

هذه الآيات نزلت بمكة ، وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة حصلت معركة بدر التي قتل فيها سبعون من كفار قريش ، فهذه الآيات من الأنباء الغيبية التي تحققت بعد مدة وجيزة من نزولها .

ثم تأتي الآيات مخاطبة النبي محمداً ﷺ بدعوته إلى التمسك بالقرآن وما فيه من الهدى والرشاد ، وأن في التمسك به شرفاً له ولأمته :

﴿ فَاسْتَمْسِك بالَّذي أُوحيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسأَلُونَ . واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُون الرَّحْمٰن آلهةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٣ ـ ٤٥) .

فاللَّه سبحانه يقول : فتمسك يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه إليك إنك على طريق الحق القويم ﴿ وَإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي وإن القرآن لشرفٌ لك ولأمتك وشرفٌ لكل من اتبعه ﴿ وَسَوْفَ تُسأَلُونَ ﴾ وسوف تسألون يوم القيامة عن حقه وعن شكر هذه النعمة .

صدق اللَّه إذ قال إن القرآن شرفٌ لمن اتبعه ، فعندما اتخذ المسلمون الأوائل القرآن دستوراً لهم في كافة شؤونهم الدينية والروحية والخلقية

أصبحوا أمةً قوية موحدة متحلية بالفضائل ، بعد أن كانوا قبل الإسلام قبائل متقاتلة منغمسة بالفواحش والمنكرات ، ثم سيطروا على أقوى الدول التي تجاورهم ، كل ذلك بفضل القرآن .

ثم يقول سبحانه : ﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ المقصود بسؤال الرسل سؤال أممهم من أهل التوراة والإنجيل الذين أرسلنا إليهم رسلنا من قبلك يا محمد ، ويكون سؤال الرسل في الآية إنما هو على سبيل المجاز ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي هل جاءتهم رسل اللَّه بدعوة غير الدعوة إلى توحيد اللَّه وعبادته وحده ، وهل عبادة الأوثان والملائكة جاءت في عقيدة من عقائدهم ؟ هذا السؤال المراد منه الاستشهاد بإجماع الأنبياء على وحدانية اللَّه ، والتنبيه إلى أن ما جاء به رسول اللَّه محمد من الهدى ليس بدعة ابتدعها حتى يكذِّبه قومُه ويُعادُوهُ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا
هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا
يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾
فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا

شرح المفردات

بآيَاتِنَا : بمعجزاتنا .
وَمَلَئِه : وأشراف قومه .
بما عَهِدَ عِنْدَك : بعهد اللَّه عندك من أن دعوتك مستجابة .
يَنْكُثُون : ينقضون العهد .
مَهِينٌ : ضعيف حقير .
ولا يكاد يُبين : ولا يكاد يفصح لسانه عن كلام واضح .
مُقْتَرنين : متتابعين .
فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ : فاستجهل قومه ، أو وجدهم خفاف العقول .
فَاسِقين : خارجين عن طاعة اللَّه .
آسَفُونَا : اغضبوا اللَّه .

أَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾
وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ
﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ
لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ
قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

شرح المفردات

فَجَعَلْنَاهم سَلَفاً : فجعلهم اللَّه سابقين كفار مكة بالعذاب .
وَمَثَلاً للآخِرين : عبرة وعظة لمن جاء بعدهم من الأمم .
يَصِدُّون : يضجون ويستغربون ضحكاً وتقرأ بضم الصاد بمعنى يعرضون .
مَا ضَرَبُوه إلَّا جَدَلاً : أي ما ضربوا هذا المثل إلّا لأجل الجدل والخصام .
خَصِمُون : مجادلون بالباطل .
وإنه لَعِلْمٌ للسَّاعَة : وأن نزول عيسى على الأرض علامة على قرب القيامة .
فلا تَمْتَرُنَّ بها : فلا تَشُكُّوا بالقيامة .
بالبينات : بالأدلة والمعجزات .

تابع سُورَة الزُّخْرُف

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن رسول اللَّه موسى الذي بلّغ رسالة اللَّه إلى فرعون وقومه فقابلوها بالسخرية والرفض فكان أن حلّ بهم العذاب جزاء رفضهم هدى اللَّه ، ذكر ذلك القرآن تثبيتاً لقلب النبي محمد ﷺ وتهديداً لكفار قريش وغيرهم من أن يحل بهم ما حلّ بقوم فرعون :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَونَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِي رَسُولُ رَبِّ العَالَمين . فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُون . وَمَا نُرِيهِم مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَقَالوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لمهتَدُونَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُم العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾(٤٦ ـ ٥٠) .

فاللَّه سبحانه أرسل موسى ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي مؤيداً بالمعجزات الإلهية والحجج التي تثبت أنه رسول من اللَّه ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ والملأ أشراف القوم ووجوههم أطلق على الجماعة بجملتهم ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فقال لهم موسى إني رسول اللَّه إليكم أرسلني اللَّه لأدعوكم إلى عبادة اللَّه وحده ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ فلما جاءهم موسى بالمعجزات والحجج الدالة على صدق نبوته ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أي يسخرون ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِنْ آيَةٍ ﴾ أي وما يريهم اللَّه من معجزة فيها حجة على نبوة موسى ﴿ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ إلّا أعقبها بمعجزة بالغة الغاية في الإعجاز وأعظم في الحجة عليهم بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالعَذَابِ ﴾ أي عاقبهم اللَّه بأنواع العذاب كالطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والسنين التي فيها جدب وشدة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ رجاءَ أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر ﴿ وَقَالو

يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ أي يا أيها العالم وهو لقب تقدير عندهم وكان الساحر فيهم يحظى بمكانة مرموقة ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أي اسأل ربك بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة ، أو بعهده الذي عهد إليك من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ إننا مصدقوك فيما جئتنا به ومتبعوك ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ أي فلما رفع اللَّه العذاب عنهم ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر .

ويتابع القرآن فيقدم لنا صورة عن موقف فرعون مع موسى مشابهةً لموقف الكفار مع محمد ﷺ في رفض نبوته ، فكما رفضت قريش نبوة محمد بسبب فقره فكذلك رفض فرعون نبوة موسى لنفس السبب ، وكانت النهاية هلاك فرعون وجماعته :

﴿ وَنَادَى فِرْعَونُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تحتي أفلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الّذي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أو جَاءَ مَعَهُ الملائِكَةُ مُقْتَرِنِين . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهم كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾ (٥١ ـ ٥٦) .

أي ونادى فرعون في قومه معلناً قوته وسطوته : أليس لي وحدي ملك مصر ، وهذه الأنهار ـ أي روافد النيل ـ تجري من تحت قصري ومن خلال جنائني ، أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي ، وتابع فرعون قائلاً : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ أي بل أنا خير ﴿ مِنْ هَذَا الذي هُوَ مَهِينٌ ﴾ من موسى الذي هو ضعيف حقير ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبين ﴾ ولا يكاد يفصح عن كلامه للثغة كانت في

لسانه[1] ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أي فهلاّ أُلقي على موسى أسورة من ذهب إن كان صادقاً بأنه نبي[2] ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الملائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أو جاء مع موسى الملائكة مجتمعين أو متتابعين يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي فاستجهل فرعون قومه فأطاعوه لخفة في عقولهم ﴿ إِنَّهُم كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة اللَّه ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي فلما أغضبوا ربهم انتقم منهم بعذابٍ عاجل ﴿ فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً ﴾ أي فجعلهم اللَّه سابقين ومتقدمين كفار مكة إلى عذاب النار ﴿ وَمثلاً لِلآخِرِينَ ﴾ وعبرة وعظة يتعظ بهم من جاء متأخراً بعدهم من الأمم .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الكلام عن رسول اللَّه عيسى ونظرة كفار مكة إليه :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْم خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَني إِسْرائِيلَ ﴾ (٥٧ ـ ٥٩) .

فاللَّه يقول : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ أي ولما أورد اللَّه المثل بأن خلق عيسى بدون أب شبيه بخلق آدم الذي خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون[3] ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ إذا قومك يا محمد من ذلك

---

(١) وقد حلّ اللَّه هذه اللثغة في لسانه فيما بعد إجابة لدعائه ﴿ واحلل عُقْدَةً مِنْ لساني يَفْقهُوا قَوْلي ﴾ .

(٢) كان قوم فرعون إذا أرادوا أن يجعلوا رئيساً عليهم سوَّروه بسوارين وطوّقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته .

(٣) جاء في القرآن : ﴿ إن مثل عيسى عند اللَّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

المثل يضجون[1] ، أو يعدلون عن الحق ، ويقولون : ما يريد محمد منا إلّا أن نتخذه إلّهاً نعبده كما عبدت النصارى المسيح ﴿ وَقَالوا : أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي قال المشركون : أآلهتنا التي نعبدها خير أم محمد ؟ فنعبد محمداً ونترك آلهتنا ﴿ مَا ضَرَبُوه لَكَ إِلَّا جَدَلاً ﴾ أي ما أورد المشركون ذلك المثل إلّا لأجل الجدال والخصومة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي هم قوم يلتمسون الخصومة بالباطل ﴿ إِن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي فما عيسى إلّا عبد من عباد اللّه أنعم اللّه عليه بالرسالة الإلهية ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيل ﴾ أي وجعله اللّه آية وعبرة لبني إسرائيل حيث أيده بالمعجزات الباهرة ، وليس كما تقول النصارى « ابن اللّه »[2].

---

(١) ضج : صاح وأحدث جلبة .

(٢) ويرى بعض المفسرين في أسباب نزول هذه الآيات السابقة هو أنه لما تلا رسول الله على المشركين ﴿ إنّكم وَمَا تعبدون مِنْ دُونِ اللّه حَصَب جهنم ﴾ أي إنكم أيها المشركون والآلهة التي عبدتموها من غير اللّه ستكونون وقوداً لجهنم ، ولما سمع عبد اللّه بن الزبعري هذه الآية قال لرسول اللّه ـ قبل إسلامه ـ أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ، فقال رسول اللّه : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال ابن الزبعري : قد خصمتك ورب الكعبة ، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود يعبدون عزيراً ، وبنو فلان يعبدون الملائكة ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت النبي انتظاراً لنزول الوحي عليه فظنوا أنه ألزم الحجة فضحكوا وارتفعت أصواتهم وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولمَّا ضُرِبَ ابن مريم مَثَلاً إذا قَومُكَ منه يصِدُّون ﴾ ثم قال المشركون : ﴿ أآلهتنا خَيْرٌ أم هُوَ ﴾ أي آلهتنا خير أم عيسى فإذا كان هو في النار فلنكن وآلهتنا معه . ثم أنزل اللّه بعد ذلك هذه الآية رداً عليهم : ﴿ إنَّ الذين سَبَقَتْ لَهم مِنَّا الحُسْنَى أولئك عنها مُبْعَدون ﴾ أي إن الذين وفقناهم لاتباع الحق وعمل الخير ، ووعدناهم بالعاقبة الحسنى كالأنبياء والصالحين أولئك من جهنم وعذابها مبعدون .

هذا وقد روي أنه قيل لابن الزبعري « ما أجهلك بلغة قومك » فإن « ما » في قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون اللّه ﴾ هي تقال لما لا يعقل (بخلاف مَنْ التي تقال للعاقل) وحينئذٍ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهةً من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما عنى بذلك الأصنام التي عبدوها .

ثم تأتي الآيات نافية الألوهية عن الملائكة ، مع الدعوة للإيمان بالقيامة التي يعتبر نزول المسيح إلى الأرض في آخر الزمان علامة من علاماتها :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُم مَلائِكَةً في الأَرض يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلمٌ للسَّاعَة فلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦٠ ـ ٦٢) .

فاللّه يقول : ولونشاء يا معشر بني آدم أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم في الأرض ملائكةً يخلفونكم فيها ليعبدوني . وقيل إن المعنى : ولو نشاء لجعلنا منكم بطريق التوالد ملائكة يخلفونكم كما يخلفكم أولادكم ، وإذا كان هذا شأن الملائكة فكيف يخصهم البعض بالعبادة وينسبهم إلى اللّه عن طريق البنوة .

﴿ وإنَّه لَعِلْمٌ[1] للسَّاعَة ﴾ الساعة : هي القيامة ، والضمير في (إنه) يعود على القرآن ، أي أن القرآن يعلمكم بالقيامة ويخبركم عنها وعن أهوالها .

وقيل إن الضمير في (إنه) يرجع إلى محمد ﷺ وإن محمداً لعلامة للساعة بدليل قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى .

وقيل إن الضمير في (إنه) يعود على عيسى عليه السلام أي أن

---

(١) وفي قراءة (لَعَلَم للساعة) بفتح العين واللام بمعنى أمارة .

حدوثه بغير أب وبإحيائه الموتى دليل على صحة البعث . أو بمعنى أن نزول عيسى على الأرض[١] في آخر الزمان علامة من علامات القيامة ، وقد وردت في ذلك أحاديث عن النبي بلغت مبلغ التواتر معنى منها :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « والذي نفسي بيده ليوشكن[٢] أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً[٣] فيكسر الصليب[٤] ويقتل الخنزير[٥] ويضع الحرب[٦] ويفيض المال[٨] حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَإِن[٨] مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاّ ليؤمنن بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾[٩] .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي اللّه عنه قال : « اطلع النبي علينا

---

(١) والحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء هي : الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه وبذلك يبين اللّه كذبهم ، ومنها : أن نزوله عليه السلام لدنوٍّ أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت ويدفن في غير التراب . ومنها : تكذيبه للذين ادعوا أنه إله فما هو إلاّ رسول من رب العالمين .

(٢) ليوشكن : ليقربن وتوكيد الفعل بالنون يؤكد حتمية نزوله عليه السلام .

(٣) حكماً عدلاً : حاكماً عادلاً .

(٤) فيكسر الصليب : أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمة .

(٥) ويقتل الخنزير : يأمر بإعدام الخنزير مبالغة في تحريم أكله .

(٦) ويضع الحرب : لشيوع الإسلام وانقراض الكفر .

(٧) ويفيض المال : أي يكثر المال جداً وسبب كثرته نزول البركات وتوالي الخيرات بسبب العدل .

(٨) إنْ : نافية بمعنى ما . ومعنى الآية : ما من أهل الكتاب أحد من الموجودين منهم عند نزول عيسى إلاّ ليؤمنن بأنه عبد اللّه ورسوله قبل موته عليه السلام .

(٩) رواه البخاري ومسلم .

ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات[١] وعدَّدَها وذكر منها : نزول عيسى بن مريم »[٢] .

ثم نعود إلى تتمة الآية فيقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي فلا تشكُّوا وترتابوا في حصول القيامة ﴿ واتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فاللّه يقول : أطيعوني أيها الناس فاعملوا بما أمرتكم به وانتهوا عما نهيتكم عنه هذا طريق قويم لا اعوجاج فيه . وقد يراد به قول النبي مأموراً به من جهة اللّه سبحانه : ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُم الشَّيْطَانُ ﴾ ولا يمنعكم الشيطان ويصرفكم عن شرع اللّه ﴿ إِنَّهُ لَكُم عَدوٌّ مُبِينٌ ﴾ إنّه لكم عدو ظاهر العداوة .

ويتابع القرآن الكلام عن عيسى عليه السلام وعن دعوته إلى الدين الحق :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لكم بعض الذي تَخْتَلِفُون فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه هَذَا صِرَاطٌ مُستَقِيمٌ ﴾ (٦٣ - ٦٤) .

فاللّه يقول : ولما جاء عيسى بالأدلة الواضحة على أنه رسول من اللّه ، وقد يراد بالبينات : الإنجيل ﴿ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُم بِالحِكْمَةِ ﴾ لقد جاءهم بالنبوة ، وما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذي تَخْتَلِفُون فِيهِ ﴾ أي وقال لهم : ولأبيِّن لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فاتقوا

---

(١) آيات : علامات .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

ربكم أيها الناس بطاعته ، وخافوه باجتناب معاصيه ، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد اللَّه واتباع أمره ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ إن اللَّه الذي تفرّد بالألوهية هو ربي وربكم جميعاً فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا معه في عبادته شيئاً ﴿ هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ هذا الذي أمرتكم به من تقوى اللَّه وطاعته وإفراده بالألوهية هو الطريق القويم ، وهو دين اللَّه الذي لا يقبل من أحد من عباده أن يختار ديناً غيره .

ثم يبين القرآن اختلاف الناس في عيسى بعد موته :

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذين ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أليمٍ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾(٦٥ ، ٦٦) .

المراد بالأحزاب : الفرق التي تناظرت في أمر عيسى واختلفت فيه من اليهود والنصارى ، فمنهم من أقر بأنه عبد اللَّه ورسوله ، ومنهم من قال إنه ابن اللَّه وأنه إله ، ومنهم من أنكر نبوته ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِين ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ فهلاكٌ للظالمين الذين كفروا بإسناد صفات الألوهية لعيسى وعذاب مؤلم لهم يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي ماذا ينتظر هؤلاء المخالفون للحق حتى يرجعوا إلى الصواب هل سيظلون على عنادهم ويستمرون على كفرهم حتى تأتيهم القيامة فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرون ﴾ وهم غافلون عنها غير مستعدين لها فحينئذٍ يندمون كل الندم على افتراءاتهمْ هذه .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾
يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ
وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ
فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ
عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ
لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا

شرح المفردات

الأَخِلاَّءُ : الأصدقاء الأحباء .
تُحْبَرُون : تسرون سروراً يظهر أثره على وجوهكم .
بِصِحَافٍ : صحون وآنية .
لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ : لا يخفف عنهم العذاب .
مُبْلِسُون : يائسون من رحمة الله .
مالك : إسم خازن النار .
لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ : أدع ربك أن يميتنا .
أَبْرَموا أمْراً : أحكموا أمراً للكيد بالنبي .

لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ
هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

شرح المفردات

وَنَجْوَاهُم : ما يتحدثون به فيما بينهم خفية .
وَرُسُلُنَا : أي ملائكة اللّه .
ذَرْهُمْ : أتركهم .
يَخُوضُوا : يتكلموا بالكذب والباطل .
يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ : يوم القيامة الذي وعدهم اللّه به .
تَبَارَكَ : تقدس وتكاثر خيره .
فَأَنَّى يُؤْفَكُون : فكيف ينصرفون عن عبادة خالقهم .
فاصفح عنهم : فأعرض عنهم .

تابع سُورَة الزُّخْرُف

ثم ينتقل القرآن إلى بيان خطر صداقة السوء القائمة على المعاصي هذه الصداقة التي تنقلب إلى عداوة يوم القيامة بخلاف صداقة المتقين لأنها تؤدي بهم إلى نعيم اللّه ورضوانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتَّقِينَ . يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُون . الَّذِين آمنوا بِآيَاتِنَا وَكَانوا مُسْلِمِينَ . أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُون ﴾ (٦٧ ـ ٧٠) .

فالأخلاء وهم الأصدقاء والأحباء يكون بعضهم لبعض أعداء يوم القيامة إذا كانت صداقتهم قائمة على معصية اللّه ، لأنهم آنذاك في عذاب اللّه . أما الذين قامت صداقتهم ومحبتهم على تقوى اللّه وطاعته ، فهذه المحبة راسخة غير قابلة للتغيير ، بل تصير في الآخرة أقوى وأفضل مما كانت عليه في الدنيا لأنها أوصلتهم إلى نعيم اللّه ورضوانه .

ثم يأتي خطاب اللّه للمتقين يوم القيامة : ﴿ يَا عِبَاد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُونَ ﴾ هذه الآية تشيع البهجة في نفوس المؤمنين وتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم من عدة وجوه ، منها : أن اللّه خاطبهم بنفسه من غير واسطة ، ومنها : أنه تعالى وصفهم بأنهم عباده ، وهذا تشريف عظيم لهم ، بدليل أنه سبحانه لما أراد أن يشرف محمداً ليلة الإسراء قال : ﴿ سُبْحَان الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ . ومنها قوله: ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم ﴾ أي من عقابي فأنتم في أمن منه برضاي عنكم . ومنها قوله : ﴿ وَلاَ أَنْتُم تَحْزَنُونَ ﴾ أي على فراق الدنيا فإن الذي قدمتم عليه من نعيم الآخرة خير لكم وأبقى من الدنيا التي فارقتموها . وهؤلاء الذين نالوا رضاء اللّه هم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانوا مُسْلِمِين ﴾ أي صدّقوا بوجود اللّه ، وكانوا

منقادين خاضعين لأوامره التي جاءت بواسطة رسُل اللّه ، ثم يقال لهؤلاء المؤمنين : ﴿ أُدْخُلوا الجَنَّةَ أَنْتُم وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُون ﴾ أي أدخلوا الجنة أنتم مع أزواجكم المؤمنات تنعمون أو تكرمون بما أعطاكم اليوم ربكم من نعيم .

ويتابع القرآن وصف نعيم هؤلاء المتقين في الجنة :

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُس وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٧١ ـ ٧٣) .

فهؤلاء المؤمنون يُطاف عليهم بأطباق من ذهب فيها ألوان الأطعمة مع أقداح من ذهب فيها ألوان الشراب. وفي الجنة : ﴿ كُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ ﴾ من أنواع اللذائذ والمشتهيات ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ من أنواع المناظر الجميلة . ثم يُقال لهم إكمالاً لسعادتهم ﴿ وَأَنْتُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي أنتم في الجنة باقون دائمون ، وهذا اكمال لسرورهم لأن كل نعيم زائل يعتريه القلق من خوف الزوال . ثم يُقال للمتقين خطاباً لهم : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُموها بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ أي فهذه الجنة أسكنكم اللّه إياها ثواباً وجزاءً لما كنتم تعملونه في دنياكم من خيرات ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لكم في الجنة كل ما تشتهونه من أنواع الفاكهة الكثيرة .

ثم ينتقل القرآن إلى وصف هول العذاب الذي يصيب الكافرين المجرمين :

﴿ إِنَّ المجْرِمِينَ في عَذابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِنْ كَانوا هُمُ الظَّالِمِينَ . وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ : إِنكُم مَاكِثُون . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُم لِلْحَقِّ

كَارِهُونَ ﴾ (٧٤ ـ ٧٨) .

فالمجرمون في عذاب النار ماكثون فيها لا يخرجون منها أبداً . وهم ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف عنهم العذاب ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ وهم في هذا العذاب يائسون من أن يصيبهم عفو من اللّه وذلك بسبب ما جنته أيديهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي وما ظلمهم اللّه حين أدخلهم جهنم ، ولكن ظلموا أنفسهم بكفرهم باللّه وجحودهم وحدانيته وعبادتهم غيره .

وبعد دخول الكافرين النار يستغيثون بخازن جهنم واسمه مالك وينادونه قائلين : ﴿ وَنَادَوا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي سل ربك أن يميتنا حتى نستريح من العذاب ، إنهم لا يطلبون النجاة لأنهم يائسون من ذلك ، وإنما يطلبون الموت السريع للخلاص ، وهذا يكشف عن مدى الهول الذي يلاقونه ، ويأتيهم الجواب : ﴿ إِنَّكُم مَاكِثُونَ ﴾ إنكم باقون في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه بموت أو غفران . ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكم بالْحقِّ ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وهو خطاب توبيخ وتقريع لهم من جهة اللّه تعالى مبين لسبب مكوثهم في العذاب ﴿ وَلَكِنَّ أكثركم لِلْحَق كَارِهُون ﴾ ولكن أكثركم لما جاء به محمد من الحق كارهون ، معرضون عنه .

وبعد تهديد الكافرين بسوء المصير انتقل القرآن إلى تحذيرهم من الكيد للنبي ﷺ لأن اللّه قادر على رد كيدهم وهو سبحانه يسمع كل ما يدبرونه في الخفاء :

﴿ أَمْ أَبْرمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ . أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ ﴾ (٧٩ ـ ٨٠) .

والمعنى : قل يا محمد للذين يدّعون أن للّه ولداً : إن ثبت أن للّه ولداً لكنت أول من يعبد هذا الولد ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، ولكن لم يصح بالحجة والبرهان أن للّه ولداً . وقيل إن المعنى : إن كان للرحمٰن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين للّه تعالى . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس رب السماوات والأرض مما ينسبون إليه من الولد ﴿ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، وعرش اللّه لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالإسم ، فالعرش إشارة إلى ملكه وسلطانه ولا يدل على المقر ، فاللّه سبحانه منزه عن المكان . ﴿ فَذَرْهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أي اترك يا محمد هؤلاء المفترين على اللّه بأن له ولداً ، فموقفهم ظاهر البطلان لا يستحق أن تدخل معهم في جدل بأمره فاتركهم يخوضوا في

باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُونَ ﴾ حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوا به وهو يوم القيامة حيث يحاسبون على افترائهم الكذب على اللّه .

ثم تأتي الآيات التالية بعد الرد على افتراء المفترين لتمجد الخالق وتصف مدى عظمة القدرة الإلٰهية :

﴿ وَهُوَ الَّذي في السَّمَاءِ إلٰهٌ وَفي الأَرْضِ إلٰهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ . وَتَبَارَكَ الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَعِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ (٨٤ ـ ٨٥) .

فاللّه له الألوهية في السماء والأرض وهو المعبود بحق فيهما ، وهو الحكيم في تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي ﴾ أي وتقدس اللّه وكثر خيره ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ ﴾ له ملك ما في السماوات من أجرام سماوية وما في الأرض من سهول وجبال وكائنات حية . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعة ﴾ أي عنده سبحانه علم الوقت الذي تقوم فيه القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ أي إليه تُرَدُّون أيها الناس بعد مماتكم فيجازيكم على أعمالكم .

ثم تختتم السورة بتحذير المشركين من الاستمرار في عقائدهم الباطلة ، مع تهديدهم بسوء المصير :

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذين يَدْعُون مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُم : مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَقِيلِهِ يَا ربِّ إنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُون . فَاصْفَحْ عَنْهُم وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦ ـ ٨٩) .

فالذين يدعونهم ويعبدونهم من دون اللّه هم عيسى ، وعزير ،

والملائكة ، فهؤلاء لا يملكون الشفاعة إلاّ لمن ﴿ شَهِدَ بالحقِّ ﴾ وآمن عن علم وبصيرة . والشهادة بالحق هي شهادة أن لا إلٰه إلاّ اللّٰه وأن محمداً رسولُ اللّٰه وإطاعة اللّٰه . فعيسى كان يعبده النصارى ، وعُزير كان يعبده اليهود ، والملائكة كان يعبدها بعض العرب ، فهؤلاء الذين هم في الحقيقة عباد اللّٰه لا تصح عبادتهم ، وهم يملكون الشفاعة عند اللّٰه بإذنه لهم لمن يرتضيه من خلقه .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين باللّٰه من قومك : من خلقهم ؟ لقالوا اللّٰه خلقنا ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ فبأي وجه يُصرفون عن عبادة الذي خلقهم وينصرفون إلى عبادة الأصنام والملائكة مع اعترافهم بأن اللّٰه هو الذي خلقهم ﴿ وَقِيله[1] : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون ﴾ أي أن اللّٰه يعلم قول نبيه محمد وهو يشكو إليه قومه : يا رب إن هؤلاء القوم الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعوتهم إلى عبادتك لا يؤمنون بأنك واحد أحد لا شريك لك . وهنا يأتي التوجيه الإلٰهي للنبي ﷺ بأن يقابل موقفهم بالصفح وعدم الاكتراث لأمرهم ، مع الشعور بالثقة باللّٰه : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُم ﴾ أي تجاوز عن ذنوبهم وأعرض عنهم ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ أي أمري معكم أيها المشركون سلام ، لا أريد غير السلامة ، سلام وداع ومفارقة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ هذه الجملة من الآية فيها تهديد ووعيد للكفار بسوء المصير . وقد تحقق فعلاً هذا الوعد فقتل أكثر المشركين المناوئين للنبي ﷺ ، وانتصرت راية الإيمان على راية الكفر ، هذا مع العلم أن هذه السورة مكية نزلت بمكة حيث كان المسلمون قلةً مستضعفين ، وهذا مما يثبت أن القرآن وحي إلٰهي وليس بكلام بشر إذ لا يعلم الغيب إلاّ اللّٰه .

(١) وقيله : أي قول النبي وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿ وعنده عِلْمُ الساعة ﴾ .

سُورَةُ الدُّخَانِ

سُمِّيت هذه السورة سورة الدُّخان لأن اللّٰه ذكر فيها علامة من علامات القيامة وهي الدخان الذي يظهر في العالم آخر الزمان ، أو أنه علامة من علامات العذاب يصيب اللّٰه به عباده المسيئين .

استُهلَّتِ السورة بالقسم بالقرآن الذي أنزله اللّٰه إلى السماء الدنيا في ليلة مباركة ، ثم تحدّثت عن موقف المشركين من هذا القرآن وأنهم في شكٍ وارتيابٍ من أمره ، رغم الأدلة التي تشهد أنه وحي إلٰهي .

ثم تحدّثت عن قوم فرعون وما حلّ بهم من العذاب نتيجة طغيانهم وإجرامهم ، وعمَّا تركوه بعد هلاكهم من قصور عامرة ، وجنائن ناضرة.

كما تذكر السورة فضل اللّٰه على بني إسرائيل حين نجاهم من اضطهاد فرعون وأعطاهم من النِّعم الشيءَ الكثير .

ثم تتناول السورة قضية البعث الذي ينكره المشركون وتؤكد وقوعه ، وتنذر المشركين بالهلاك إن استمروا على كفرهم ، ثم تبين السورة مصير الكافرين في الآخرة وما يقاسونه من عذاب أليم ، كما تبين مصير المؤمنين وما يثابون عليه من النعيم .

والملفت للنظر أن هذه السورة يتدفّق أسلوبها ويندفع في جمل قصيرة محدثة إيقاعاً في الأذن ، مثيرة بذلك الانفعال السريع العنيف لما فيها من أحداث مثيرة تقرع القلب . كما يتميز أسلوبها بهذا الانسجام الصوتي ، والتعبير البليغ من اتفاق الفاصلة في آياتها على أحرف معينة ، ووزن خاص ، والفاصلة تُطلق على الكلمة التي تختتم بها الآية من القرآن ، فمكانها في الآية مكان القافية في الشعر ، لها قيمتها في إتمام المعنى ، ولها أثرها في الجمال الصوتي لنظم القرآن .

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية ، وآياتها تسع وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾
فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ
وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

شرح المفردات

والكِتَاب المبين : يقسم اللَّه بالقرآن المبين لطريق الهدى .

لَيْلَةٍ مبَاركة : أي كثيرة الخير وهي ليلة القدر التي تقع في شهر رمضان.

مُنْذِرين : مخوّفين ومحذّرين من العقاب .

يُفْرَقُ : يبين ويُفصل .

مُوقنين : متأكدين .

مُبين : واضح ظاهر .

أنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى : كيف يتذكرون ويتعظون .

تَوَلَّوْا عنه : أعرضوا عنه وتركوه .

مُعَلَّمٌ : يُعَلِّمُهُ بَشَر .

إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ
الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾
وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ
هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ
الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات

يومَ نَبْطِشُ : يوم نأخذهم بعنف وشدة لإهلاكهم ، وهويوم معركة بدر .

فَتَنَّا : ابتلينا واختبرنا .

رَسُول كَرِيمٌ : هوموسى عليه السلام .

أَدّوا إِليَّ عِبَاد اللَّه : سلموا إلي بني إسرائيل .

أَلّا تَعْلوا على اللَّه : أن لا تتكبروا على اللَّه ولا تترفعوا عن طاعته .

بسُلْطَانٍ مُبين : بحجة واضحة وبرهان ظاهر .

إني عُذْتُ بربي : استجرت به والتجأت إليه .

تَرْجُمون : تقتلوني رجماً بالحجارة .

فَأَسْر بِعِبَادي لَيْلًا : سر ليلاً ببني إسرائيل .

إنَّكُم مُتَّبَعُونَ : ملاحقون من فرعون وجنوده .

رَهْواً : ساكناً أو منفرجاً .

سُورَةُ الدُّخَانِ

ايضـــاح و دروس

استهـل اللَّه هذه السـورة بالكـلام عن القرآن الكـريم الذي أنـزله اللَّه تعالى في ليلة مباركة لتحذير الناس من عصيان ربهم :

﴿ حمٓ . وَالكِتَابِ الْمبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنـذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُـلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْـراً مِنْ عِنْدِنَـا إِنَّا كُنَّـا مُرْسِلِينَ . رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾(١ ـ ٦) .

﴿ حمٓ ﴾ حرفان من حـروف الهجاء العـربية تـألّف القرآن منهمـا ومن سائر الحروف الأبجدية الأخرى ، ذكرهما القـرآن في بدء السـورة من باب تحدي المشركين وإظهار عجزهم عن الإتيان بمثل هـذا القرآن المؤلف من الحـروف التي بها يتكلمون .

﴿ وَالكِتَـابِ الْمُبِينِ ﴾ الواو هي واو القسم ، والكتـاب هنا هـو القـرآن الكريم ، والمبين : الواضـح الظاهـر الذي يبين سبيـل الحق . فاللَّه أقسم بالقرآن المبين لطريق الهدى من طرق الضلالة .

﴿ إِنَّـا أَنزلنَـاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَـةٍ ﴾ هذه الآيـة هي جواب القسم ، فـاللَّه يقسم بالقرآن بأنه أنزله في ليلةٍ مباركة أي كثيرة الخير وهي ليلة القـدر على الأرجح والتي تقع في شهر رمضان ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنـزلناه في لَيْلَة الْقَدْر ﴾ . وقيل إن المراد بها ليلة الخامس عشر من شهر شعبان ، ووصفهـا اللَّه بالبـركة لـزيادة خيـرها ، ولمـا يُنَزِّل اللَّه فيهـا على عباده من البـركات والخيـرات . والمراد بـإنزال القـرآن ابتداء نـزوله ، وقيـل : أُنزل

القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الـدنيا ، ثم أُنـزل متفرقاً في مـدى ثلاث وعشـرين سنة حسب المـواقف التي تستدعي نـزول القرآن .

﴿ إِنَّا كُنَّا منذِرين ﴾ أي أنزل اللَّه القرآن لتحذيـر الناس وإنـذارهم من مغبة الكفر والعصيان الذي يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة .

﴿ فِيهَـا يُفْـرَقُ كُـلُّ أَمْـرٍ حَكيم ﴾ أي في هـذه الليلة المبـاركـة يُقضى ويُفصـل كل أمـر أحكمـه اللَّه تعـالى في تلك السنـة إلى مثلهـا من السنـة الأخـرى من خلق أو رزق أو أجـل أو مصيبـة ، أو نحـو هـذا ممـا تقتضيـه الحكمة الإلآهية .

﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الأمر هـو القرآن أنـزله اللَّه من عنـده ، أي إن هذا الإنزال للكتاب هو بإرادة اللَّه ومشيئته ، وقد نسبـه اللَّه إليه ﴿ مِنْ عِنْـدِنَا ﴾ للدلالـة على شرفـه ، وقيل المـراد بالأمـر : مـا قضـاه اللَّه في هـذه الليلة المبـاركة من أحـوال عباده ﴿ إِنَّـا كُنَّا مُـرْسِلِين ﴾ أي أن اللَّه أرسل رسـولـه محمـداً إلى عباده ﴿ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّـكَ ﴾ لـرحمتهم وهـدايتهم إلى مـا فيـه خيرهم ، وتتجلى الرحمة برسالة النبي ﷺ وبالقرآن الذي أُنْزِلَ عليه حَامِـلاً إلى البشـر سبل الخيـر والفلاح والهـدى . ﴿ إِنَّهُ هُـوَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾ إنـه سبحـانه يسمـع ما يقـوله المشـركون في القـرآن من مفتريـات ، ويعلم بما تنطوي عليه ضمائرهم .

ويتابع القرآن فيبين عظمة اللَّه وقدرته المسيطرة على هذا الكون والتي تستوجب طاعته والخضوع لأوامره ونواهيه :

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ . لا إِلَه إِلاّ هُوَ

يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ (٧ - ٩) .

فالرب في أصل اللغة : التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ولا يُقال لفظ (الرب) مطلقاً إلاّ للّه ، ويأتي الرب بمعنى المالك . فاللّه هو المربي والمالك للسماوات وما تحتويه من بلايين النجوم والكواكب وغيرها ، وهو مالك الأرض ، وما عليها من جماد ومياه ونبات وحيوان ، كما أنه سبحانه مالك ما بين السماوات والأرض من عناصر كالهواء والأثير والأشعة وغير ذلك ﴿ إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ ﴾ إن كنتم تُقرُّون بأن للسماوات والأرض ربًّا خالقاً عن عِلْمٍ ويقين ﴿ لا إِلَـهَ إِلاّ هُوَ ﴾ لا معبود لكم أيها الناس غير رب السماوات والأرض فلا تعبدوا غيره ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فهو سبحانه يحيي ما يشاء ويميت ما يشاء مما كان حيًّا ﴿ رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكم الأَوَّلِينَ ﴾ فهو سبحانه مالككم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأولين الذين قضوا نحبهم ، فمن كانت هذه صفاته فاعبدوه - أيها المشركون - دون آلهتكم التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أي ما هم موقنين بحقيقة ما يقال لهم وما يخبرون به من هذه الحقائق ، والمقصود هنا مشركو قريش ومن سار على نهجهم ، فهم يشكون في رسالة محمد ويلهون في معتقداتهم الباطلة التي لا تقوم على حجة ودليل ، معرضون عن مواعظ ربهم ، ومن كانت هذه حاله فلينتظر الهلاك والعذاب من اللّه سبحانه ، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية :

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا

إِنَّكُم عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ (١٠ - ١٦) .

فاللّه يقول : فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماء بدُخَانٍ ظاهر ، وقد ورد أنه لما استعصت قريش على النبي ﷺ وأبى أكثرهم الإسلام دعا عليهم بسنين « أي بسنين من القحط » كسنيّ يوسف عليه السلام ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهْد[1] ، وتعليل ذلك أن الجوع الشديد تعرض فيه للبصر ظلمة من شدة الضعف ، حتى يرى صاحبه فيما بينه وبين السماء كهيئة الدُّخان ، أو لأن الهواء يتكدر سنة الجدب بكثرة الغبار الذي يشبه الدخان بسبب قلة الأمطار المسكنة له ، هذا مع العلم أن جو الجزيرة العربية حافل بمواسم يثور فيه الغبار الشديد .

وقيل - وهو الأقرب إلى الصواب - إن الدخان هو من أمارات يوم القيامة وهو لم يجيء بعد ، فهو يأخذ بأنفاس الكفار ، ويصيب المؤمنين منه كالزكام ﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أليم ﴾ أي يحيط هذا العذاب بالناس من كل جانب فيقولون : هذا عذاب مؤلم أشد الألم ﴿ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُون ﴾ يتضرع هؤلاء الكفار مستغيثين باللّه : إننا سنؤمن إن كشفت عنا عذاب الجوع أو الدخان .

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أي من أين لهم التذكُّر والاتعاظ بعد نزول هذا البلاء وقد جاءهم رسول من اللّه ظاهر الصدق ، مؤيد بالحجج الظاهرة وهو محمد ﷺ ، ومع هذا لم يؤمنوا ولم يتعظوا لما جاءهم به من الهدى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ ثم أعرضوا عن محمد ولم يقبلوا قوله ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أي وقالوا : هناك من يعلمه من البشر ، وهو مجنون وليس برسول من عند اللّه .

﴿ إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُم عَائِدُونَ ﴾ إنا سنرفع عنكم العذاب وقتاً قليلاً ولكنكم لن تفوا بما عاهدتم عليه ربكم من الإيمان ، وستعودون إلى ما كنتم عليه من الضلال والبغي ، أو إنكم عائدون إلى اللّه بعد الممات .

وقد روي أنه لما حلَّ القحط والجوع في قريش أتى أبو سفيان النبي ﷺ فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا فادعُ اللّه لهم ، فدعا اللّه فنزل المطر من السماء وزال ما بهم من ضرّ ، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالتهم السابقة فأنزل اللّه بعد ذلك : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ . والبطشة الكبرى هي يوم معركة بدر التي قتل فيها كثير من كفار قريش .

وعلى تفسير الدخان بأنه من أمارات يوم القيامة كما سبقت الإشارة إليه يأخذ تفسير الآيات منحى آخر ، فالكفار في ظل هذا المشهد الرهيب من العذاب الذي يأخذ الناس يقال لهم : إن أمامكم فرصة للنجاة ﴿إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً ﴾ فإذا لم تغتنموها بالرجوع إلى اللّه والإيمان به وبرسوله محمد ﷺ وكتابه ، فانتظروا البطشة الكبرى وهي الانتقام الرهيب يوم القيامة ، وسواء أكان هذا العذاب أو ذاك فإن اللّه انتقم أو سينتقم من أعدائه .

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم فرعون ، حيث جاءهم موسى بالهدى من اللّه ، فأبوا تَقَبُّل الهدى ، وأصروا على ضلالهم ، فأنزل اللّه بهم الهلاك جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسوله موسى ، والقرآن يذكر ذلك باختصار متوخياً العظة والعبرة ، فهذه الآيات هي من جهة إنذارٌ للذين يكذبون برسالة محمد ﷺ من أن يصيبهم الهلاك مثل ما أصاب فرعون

وقومه ، ومن جهةٍ ثانية تثبيت لقلب محمد ﷺ ووعده بالفوز على الكافرين كما فاز موسى من قبل على فرعون وقومه . يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ . وَإِنْ لَمْ تُؤمِنُوا لي فَاعْتَزِلُونِ . فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ . وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً إِنَّهم جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ (١٧ ـ ٢٤) .

فاللّه يقول : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُم قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي ولقد اختبرنا وامتحنا قبل مشركي مكة قوم فرعون ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ والرسول الكريم هو موسى عليه السلام ، فهو كريم في قومه ، كريم الخُلُق ، أو كريم على ربه إذ خصّه اللّه بالنبوة وبكلامه ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ فموسى يقول لفرعون وقومه : أرسلوا معي عباد اللّه وأطلقوهم من العذاب وهم بنو إسرائيل ، وبنو إسرائيل كان يستعبدهم فرعون وقومه ويسومونهم سوء العذاب ، ويستخدمونهم في أشق الأعمال ، والتعبير عنهم بعباد اللّه للإشارة إلى أن استعبادهم إياهم هو ظلم ، وأن العبودية يجب أن تكون للّه وحده ، ولا يحق لأحد أن يستعبد أحداً من خَلْق اللّه .

ويجوز أن يكون المعنى : استجيبوا يا قوم فرعون إلى ما أدعوكم إليه من الحق يا عباد اللّه ، وعلل موسى ذلك بقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمين ﴾ أي إني لكم رسولٌ من اللّه أرسلني إليكم ، أمين على وحيه ورسالته التي أرسلني بها إليكم ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ لأني آتيكم بمعجزة أو حجة واضحة تبين صدق نبوتي ورسالتي ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ وإني ألتجىء إلى اللّه وألوذ به وأعتصم من أن

تقتلوني رجماً بالحجارة وفقاً لما كنتم تهددونني به ، كما ألتجيء إلى اللَّه من كل أذى أو مكروه يصلني منكم ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ وإن لم تُصدّقوني على مَا جئتكم مِنْ عند ربي فاعتزلون : أي أنتم بحالكم وأنا بحالي ، لكم شأنكم ولي شأني ، وليس من العدل أن تؤذوني لأني دعوتكم إلى ما فيه سعادتكم .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ فدعا موسى ربه قائلاً بعد أن كذبه قومه وهموا بقتله : إن هؤلاء قومٌ مجرمون . وفي الآية إيجاز وكأن موسى يقول : إن هؤلاء قومٌ تناهى أمرهم في الكفر إلى حد الإجرام والتعدي فافعل بهم يا رب ما يستحقونه من عقاب ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ وهنا إيجاز أيضاً ، والمعنى : أجاب اللَّه دعاء موسى وأوحى إليه أن سر ببني إسرائيل ليلاً ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ إن فرعون وقومه متبعوكم ليقضوا عليكم .

امتثل موسى أمر ربه ، وانطلق بقومه بني إسرائيل سرًّا من أرض مصر قاصداً فلسطين ليلاً . علم فرعون وجنوده بأمر خروج موسى ومن آمن معه فأسرعوا وراءهم ليردوهم إلى عبوديتهم ،ويستمروا في اضطهادهم ، فأدركوهم على ساحل البحر الأحمر ، فأمر اللَّه تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه فانفلق اثني عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينهما كالجبل العظيم ، فسلك موسى ومن معه من بني إسرائيل هذه الطرق ، ثم أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن آمن معه من بني إسرائيل أن يضربه بعصاه حتى يلتئم، كما ضربه أولاً فانفلق لئلا يتبعه فرعون وجنوده ، وهنا يأتي الأمر الإلهي في تتمة الآيات السابقة ﴿وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً﴾ أي اترك البحر ساكناً على هيئته وحاله

التي اجتزتها منفرجاً ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ أي إن فرعون وجنوده مغرقهم اللَّه ، وبيان ذلك : أن فرعون وجنوده لما رأوا البحر منفرجاً ساروا فيه مقتفين أثر موسى وبني إسرائيل ، ولما أصبحوا في وسط اليمّ أطبق اللَّه البحر عليهم وغرقوا جميعاً ، بينما كان موسى قد اجتاز هو وبنو إسرائيل البحر كما ذكرنا .

لقد هلك فرعون وجنوده تاركين وراءهم ما كانوا يتمتعون به من ألوان النعيم .

كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ
﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ
عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ
﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ

شرح المفردات

مَقَامٍ كَرِيمٍ : مساكن حسنة .
وَنَعْمَةٍ كانوا فِيها فاكهين : تَرَفُّهٍ في العيش كانوا ناعمين فيه .
مُنْظَرِين : ممهلين بالعذاب إلى وقتٍ آخر .
كَانَ عالياً : كان متكبراً جباراً .
وَلَقَدِ اخترناهم عَلى عِلْمٍ على العَالمين : اصطفاهم اللَّه على علمٍ منه على أهل زمانهم .
الآيَات : الحجج والبراهين .
بَلاءٌ مُبين : اختبارٌ وامتحانٌ ظاهر .
بِمُنْشَرين : بمبعوثين أحياء بعد الموت للحساب .
قَوْمُ تُبَّع : أهل اليمن ، وَتُبّع لقب ملوك اليمن .

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ
لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾
كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ
سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

يَوْمَ الفَصْل : يوم القيامة .
لا يُغني : لا ينفع ، ولا يكفي عن غيره أو يقوم مقامه .
مَولًى : من يتصل بالمرء بقرابة أو صداقة أو غيرهما .
كالْمُهْل : كالنحاس المذاب من شدة الحرارة .
الحَميم : الماء البالغ غاية الحرارة .
فَاعْتلُوهُ : خذوه بقوة وشدة .
سَوَاءِ الجحيم : وسط النار .
تَمْتَرون : تشكون وترتابون .
مَقَامَ : مكان ومجلس .
سُنْدُس : الحرير الرقيق .
إسْتَبْرَق : الحرير السميك .
حُور : نساء الجنة البيض الحسان .
عين : واسعات الأعين .

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

شرح المفردات

فَارْتَقِبْ : انتظر .

تابع سُورَة الدُّخَان

وبعد هلاك فرعون وقومه غرقاً في اليمّ يقدم لنا القرآن هذه الصورة البليغة عنهم المفعمة بالعبر:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كانوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢٥ ـ ٢٩) .

فاللَّه سبحانه يقول : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ كم : هي للتكثير ، أي لقد ترك قوم فرعون بعد إغراقهم كثيراً من البساتين الناضرة والعيون الجارية . ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ كما تركوا الزروع المتنوعة والمساكن الحسنة ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ وعيشة مترفة كانوا يتنعمون فهيا فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي هكذا بمثل هذه الصورة المخزنة تمّ نزعهم من النعيم ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ أي وتلك النِّعَم التي فقدها فرعون وقومه ملّكها اللَّه قوماً آخرين ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ

السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ هذه الآية تدعو إلى وفقة تأمل فهي توحي بأن هذه النكبة الفادحة لو حلّت بقوم غيرهم صالحين لبكى عليهم أهل السماء والأرض ، أما هؤلاء فالتعبير القرآني يوحي بأنهم هلكوا غير مأسوف عليهم كهلاك كل طاغٍ متجبرٍ في الأرض يرجو الناس الخلاص منه .

أما بشأن بكاء السماء والأرض عليهم فالعرب تقول عند موت السيد منهم بكت له السماء والأرض ، أي عمت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه ، أما بشأن فرعون وقومه فإنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ، ولم يُوجد لهم فقدُ ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ وما كانوا مؤخّرين بالعقوبة التي حلت بهم ، ولكن عوجلوا بها بسبب أنهم أسخطوا ربهم .

ويتابع القرآن فيذكر فضل اللَّه على بني إسرائيل حيث نجاهم من عذاب فرعون وقومه ، وفي هذا تثبيت لقلوب أتباع محمد المستضعفين الذين كانوا أيضاً يقاسون العذاب من كفار قريش ، ووعدهم بالخلاص من هذا الاضطهاد والعذاب .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ . وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُم عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٠ ـ ٣٣) .

فاللَّه يقول : إنه نجّى بني إسرائيل من العذاب الذي كان فرعون وقومه يعذبونهم به ، إنه عذاب مهين أي مذل لهم ، من قتل أبنائهم وتكليفهم أشق الأعمال ، لقد نجاهم اللَّه ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي نجاهم من طغيان فرعون الذي كان جباراً مستعلياً على

الناس مستكبراً على ربه مسرفاً في الكفر والإجرام ﴿ ولقد اخْتَرْنَاهُم ﴾ ولقد اصطفاهم اللَّه وشرفهم ﴿ عَلى عِلْمٍ ﴾ على علمٍ منه باستحقاقهم لذلك ﴿ عَلى العَالَمِين ﴾ على عالم زمانهم يومئذٍ، وذلك زمن موسى عليه السلام ، أما أفضل الناس فهم أمة محمد بصريح القرآن : ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت للنَّاسِ ﴾ آل عمران : ١١٠ .

﴿ وَآتَيْنَاهُم مِن الآيات ﴾ أي وأعطى اللَّه بني إسرائيل من المعجزات : من فلق البحر ، وتظليل الغمام لهم ، وإنزال الْمَنِّ والسلوى عليهم وغير ذلك من المعجزات ، ﴿ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبينٌ ﴾ ما فيه اختبار بالنعم ظاهر ، وامتحان واضح . وهكذا فإن أفراد الناس والشعوب يعطيهم اللَّه من النعم من باب الاختبار والامتحان ليرى هل يقومون بواجب الشكر للخالق والطاعة له ، أم يقابلون هذه النعم بالكفر والطغيان ، والقرآن يبين عاقبة كل فريق من هؤلاء بقوله : ﴿ وَلَئِن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم : ٧) .

فالشاكرون لهم مزيد من النعم والكافرون بنعم ربهم ينتظرهم يوم القيامة عذاب شديد .

وبعد الكلام عن بني إسرائيل ينتقل القرآن إلى الكلام عن مشركي قريش ، وعن نكرانهم الآخرة ، مع تهديدهم بالهلاك إن هم ظلُّوا على كفرهم :

﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ : إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ . فَأْتُوا بِآبائِنَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَومُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُم إِنَّهم كَانوا مُجْرِمين ﴾ (٣٤ - ٣٧) .

فهؤلاء المشركون العرب يزعمون أن نهاية المطاف هي موتتهم الأولى

التي يموتونها في الدنيا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ أي مبعوثين بعد الموت ، ويضيفون إلى ذلك : ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ أي أعيدوا لنا آباءنا أحياء بعد موتهم إن كنتم صادقين فيما تقولون من أن هناك بعثاً وجزاءً بعد هذه الحياة .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ أهم خير : استفهام إنكار وتوبيخ لمشركي قريش ، وليس المقصود بالخير هنا على إطلاقه لأنه لا خير في الفريقين ، وإنما المراد بالخير جانب القوة والشدة ، ويكون المعنى : أَهُمْ خيرٌ في القوة والشدة أم قوم تُبّع . وتُبّع لقب لملوك اليمن وقد نسب إليهم أهل اليمن في القديم وكانوا أصحاب منعة[1] ونعمة ، ولعل المراد ملك معين من ملوك التبابعة كانت العرب تعرفه أشد معرفة من غيره ، ويُروى أنه كان ملكاً صالحاً وكان قومه موغلين في الإجرام . أما قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فهم قوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم التي هلكت بسبب سوء أفعالها ﴿ أَهْلَكْنَاهُم إِنَّهم كَانوا مُجْرِمِينَ ﴾ هنا تعليل لإهلاك كل هؤلاء وأن هلاكهم كان بسبب إجرامهم ، وهكذا يكون مصير كل شعب يوغل أفراده في الإجرام .

ثم ينتقل القرآن إلى إيراد بعض الدلائل على صحة وقوع البعث :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ . إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ . يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلى عَنْ مَولًى شَيئاً وَلا هُمْ يُنْصرونَ . إِلاّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٨ - ٤٢) .

فاللَّه يقول بأنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما ﴿ لاعِبين ﴾ أي عبثاً ولهواً من غير أن يكون في خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاّ بِالحق وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فاللَّه لم يخلقهما عبثاً ولكن خلقهما بالحق ، ومن الحق إثابة المطيع على طاعته ، ومجازاة العاصي على معصيته ، ولكن أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة ، فيكذبون بالآخرة ، ولا يخافون عقاب اللَّه على ما يفعلون من إجرام ومعصية .

فالمتأمل في خلق السماوات والأرض ، وما فيها من حكمة ظاهرة ، وتناسق دقيق يوحي أن لهذا الخلق غاية فلا لعب فيه ولا لهو ، وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه ، وأن له نهاية لم تأت بعد .

واللَّه سبحانه الذي خلق الإنسان وخصه بهذا العقل الفريد دون الكائنات جميعاً ، وأعطاه شتى الميول والغرائز لم يخلقه لتكون حياته مقتصرة على الحياة الدنيا وإلاّ لكان ذلك من البعث الذي يتعالى اللَّه عنه ، ولكان الإنسان حينئذٍ يطلق لميوله وغرائزه العنان دون حسيب أو رقيب ، مما يؤدي إلى طغيان الشر وفساد الكون ، لهذا جاء في القرآن : ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لا تُرْجَعُون ﴾ (المؤمنون : ١١٥) . لا تُرْجَعُون ﴾ (المؤمنون : ١١٥) .

والإعتقاد بوجود إله عادل يستتبع حتماً جزاءً على الخير والشر ، فإن لم يتم العدل في عالم الأرض ، فلا بد أن يتم هناك في عالم آخر ؛ هذا وإن الذي يجعل الإنسان متسامحاً صبوراً محسناً باذلاً نفسه لخدمة الغير ، كابحاً نفسه عن فعل الشر هو ما يتراءى له من حياة أبدية بعد هذه الحياة يُجازى فيها على ما فعله في دنياه .

وفي ضوء ما تقدم تأتي الآية التالية مؤكدة وقوع يوم القيامة لمحاسبة الخلق : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ويوم الفصل هو يوم القيامة

وسمي بذلك لأن اللَّه يفصل فيه بين أهل الحق وأهل الباطل . ويجازي كُلَّ إنسانٍ على عمله ، فيوم القيامة هوميقاتهم أجمعين أي وقت موعدهم جميعاً ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيئاً ﴾ يوم لا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صاحب عن صاحبه شيئاً من عقوبة اللَّه أو ينفعه ﴿ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ ولا ينصر بعضهم بعضاً كما كانوا يفعلون في الدنيا ﴿ إلاّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ أي إلاّ من استحق رحمة اللَّه وهي الفئة التي استجابت للحق فآمنت باللَّه واتبعت ما أُنزل على رسوله محمد ﷺ . فهؤلاء يشفع لهم الأنبياء والملائكة للعفو عنهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فاللَّه هو القوي الغالب لأعدائه ، الرحيم بالمؤمنين الطائعين .

وبعد أن قررت الآيات السابقة حتمية الجزاء في الآخرة تأتي الآيات التالية لتعرض صورة قاتمة من العذاب الرهيب الذي ينتهي إليه العصاة :

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي في البُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إلى سَواءِ الجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُم بِهِ تَمْتَرونَ ﴾ (٤٣ ـ ٥٠) .

فشجرة الزقوم هي شجرة ذات ثمر مُرٍّ تنبت بتهامة شبهت بها الشجرة التي تنبت في مقر جهنم ، وهذه الشجرة هي طعام الأثيم : أي كثير الآثام ، والمراد به الكافر لدلالة الآيات السابقة عليه ؛ وهذا الطعام ﴿ كَالمهْلِ يَغْلي في البُطُون ﴾ والمهل هو المذاب من النحاس والحديد وغيرهما من المعادن ، أو الزيت المغلي ، الذي يغلي في البطون ، وغليانه ﴿ كَغَلْيِ الحَمِيمِ ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة . وذلك أن أهل النار عندما يجوعون يلجأون إلى هذه الشجرة التي تنبت في جهنم ،

فإذا أكلوا منها أخذت تغلي في بطونهم كغلي الحميم . ثم يُقال للملائكة الموكلة بالتعذيب : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ أي خذوا هذا الأثيم فادفعوه وسوقوه بعنفٍ وغلظة ﴿ إِلَى سَوَاءِ الجحيمِ ﴾ إلى وسط جهنم ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميمِ ﴾ ثم صبوا على رأسه الماء الساخن الذي تناهى حره ، ثم يقال له استهزاءً به وتقريعاً : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ نزلت هذه الآية في أبي جهل حين قال: ما بين جبليها ـ أي مكة ـ رجل أعز ولا أكرم مني ، فيقال له في الآخرة وهو يُعذب بالنار ذق هذا الهوان اليوم فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ﴿ إِنَّ هَذَا ما كُنْتُم به تمترونَ ﴾ أي هذا العذاب الذي كنتم تَشُكُّونَ فيه فذوقوه . والآية جاءت بصيغة الجمع لأن هذا ما يقال لكل أثيم متكبر طاغٍ وهو يعذب في نار جهنم .

وبعد أن بيَّن القرآن ما يقاسيه الكافر من عذاب عقب على ذلك بذكر ألوان النعيم للمتقين :

﴿ إِنَّ المتَّقِينَ في مَقَامٍ أَمِينٍ . في جَنَّاتٍ وَعُيونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ متقَابِلِين . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ . لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوتَةَ الأُولى وَوَقَاهُم عَذَابَ الجَحِيمِ . فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (٥١ ـ ٥٧) .

فالذين اتقوا ربهم بالعمل بطاعته ، واجتناب ما نهى عنه هم في ﴿ مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي في موضع إقامة أَمِنوا فيه من كل هَمٍّ وَحُزن ومصيبة ، فهم ينعمون ﴿ في جنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في بساتين ناضرة وعيون جارية ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ والسندس ما رَقّ من الحرير ، والإستبرق هو السميك منه ، فهم يلبسون الحرير ويجلسون ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً ليتم الأنس بينهم ﴿ كَذَلِكَ وَزَوّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

أي هكذا بمثل هذا النعيم أكرمهم اللَّه ، وزوجهم بحور عين[1] من النساء ، ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمنينَ ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار كل ما يشتهونه من الفاكهة آمنين من انقطاع ذلك عنهم ونفاده ، وآمنين من كل أذى من تناولها ﴿ لا يذوقُونَ فِيها الْموتَ إِلّا الْمَوتَة الأُولى ﴾ فلا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي التي ذاقوها في الدنيا ﴿ وَوَقَاهُم عَذَابَ الجَحِيمِ ﴾ أي ونجاهم اللَّه من عذاب النار ﴿ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي أن وقايتهم من عذاب الجحيم كانت تفضلاً يا محمد من ربك عليهم وإحساناً منه إليهم ﴿ ذَلِكَ هو الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ ذلك الظفر العظيم بما كانوا يطلبون نيله في الدنيا بأعمالهم الصالحة وطاعتهم لربهم .

ويختم اللَّه السورة ببيان أن القرآن أنزل للعظة والاعتبار مع تطمين النبي ﷺ بالنصر على أعدائه :

﴿ فَإِنَّمَا يَسّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ . فَارْتَقِبْ إِنَّهم مُرْتَقِبُونَ ﴾ (٥٨ ، ٥٩) .

فاللَّه يقول : إنما سهلنا قراءة هذا القرآن ـ الذي أنزلناه إليك يا محمد ـ بلغتك ولغة قومك ليفهموه ويتعظوا بعظاته ، ويتفكروا في آياته ﴿ فارتقب إِنَّهم مُرتَقِبُونَ ﴾ فانتظر يا محمد النصر على هؤلاء المشركين باللَّه ، إنهم منتظرون قهرك وغلبتك ، وَشَتَّان ما بين انتظارين ، فانتظار النبي قائم على الوعد الإلهي بالغلبة والنصر على أعدائه ، وانتظار المشركين قائمٌ على الوعيد الإلهي بالخزي والهلاك وسوء المصير .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

أبرز ما تعالجه هذه السورة هو إثبات البعث والجزاء على الأعمال يوم القيامة ، ولهذا سُمِّيت هذه السورة (الجاثية) لأن اللَّه ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكونون عليه من الفزع ، فيجثون على الرُّكَب من شدة ما يصيبهم من الفزع والهول .

كما تبيّن هذه السورة الدلائل على وجود اللَّه من خلال لفت الأنظار إلى عوالم السماء ، وإلى عوالم الأرض وما عليها من مظاهر الحياة من نبات وحيوان ، ثم تُنْذر السورة الذين يتعامون عن هذه الدلائل ، ويصرّون على الكفر .

كما تلفت السورة الأنظار إلى فضل اللَّه على النوع الإنساني حيث سخّر له البحر والسماء والأرض لحاجاته واستمرار حياته ، وهذا يستوجب الشكر للخالق لا الكفر به .

ثم تشير السورة إلى فضل اللَّه على بني إسرائيل حين خصّهم بالكتب الإلهية من التوراة والإنجيل ، كما خصّهم بكثير من الأنبياء ، ولكنهم أعرضوا عن هدى اللَّه ظلماً وتعدياً على الحق ، ثم خص اللَّه نبيه محمداً بشريعة تهدي إلى الحق .

ثم تحذّر السورة الذين اتخذوا أهواءهم آلهة وأعرضوا عن الحق وعن عبادة اللَّه وحده .

كما تتحدث عن الدهريين الذين أنكروا الخالق والبعث والجزاء ، مبيّنة أن الجزاء بعد الموت واقع حتماً ، فالذين كفروا في عذاب النار ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات نعيم .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مكية ، وآياتها سبع وثلاثون الآية ١٤ فمدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ

شرح المفردات

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّه : الكتاب هو القرآن الكريم وهو منزل من اللَّه تعالى .
لآياتٍ للمؤمنين : لعلامات واضحات على وجود اللَّه ووحدانيته للذين آمنوا به .
يَبُثُّ : ينشر ويفرّق .
يُوقنون : يعلمون ويتحققون بدون شك .
رِزْقٍ : مطر ، وهو سبب الرزق من نبات وثمر .
تَصْرِيف الرِّياح : تحويلها من جهةٍ إلى جهة .
نَتْلُوهَا : نقرأها .
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّه : فبأي حديث بعد حديث اللَّه .
وَيْلٌ : كلمة عذاب ودعاء بالشر تقال لمن يستحق الهلاك لسوء فعله .
أَفَّاكٍ أثيم : كذاب كثير الإثم .

ءَايَٰتُ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا
هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

يُصرُّ مستكبراً : يتمادى في كفره ، وهو متكبر عن الإيمان .
اتخذها هُزُواً : اتخذها سخريةً .
عذاب مهين : عذاب مذل ومخزٍ .
ولا يُغني عنهم ما كسبوا شيئاً : ولا ينفعهم ما جمعوا من مال لدفع العذاب عنهم .
أولياء : آلهة ونصراء .
هَذا هُدىً : هذا القرآن هدى .
كفروا بآيات ربهم : جحدوا حجج ربهم .
رجْزٍ أليم : عذاب شديد مؤلم .
سخَّر لكم : ذَلَّلَ وأخضع لكم .
الفُلْك : السفن.
وَلتبتغوا مِنْ فَضْله : ولتطلبوا الأرزاق من فضل اللَّه في البحر .
لعلكم تشكرون : لكي تشكروا ربكم .

سُورَةُ الجَاثِيَة

ايضـاح و دروس

يستهل اللَّه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن هو كتاب مُنزل من عند اللَّه لا من تأليف بشر :

﴿ حمٓ . تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ (١ ٢) .

﴿ حمٓ ﴾ حرفان من حروف الهجاء ذكرهما اللَّه في مطلع هذه السورة كما ذكر حروفاً غيرهما في مطلع كثير من السور ، وَذِكْرُ هذه الحروف إشارة إلى أن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه مصوغ من مثل هذين الحرفين وغيرهما التي بها يتكلمون ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بمثله ، فعجزهم هذا دليل واضح على أن القرآن مُنزل من عند اللَّه .

﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي أن القرآن هو كتاب مُنزل من اللَّه لهداية الناس ، واللَّه سبحانه هو ﴿ العَزِيز ﴾ أي القوي الغالب ﴿ الحَكِيم ﴾ الذي يفعل كل شيء بحكمة .

ولما كان بعض الناس يرتابون في وجود اللَّه الذي أنزل القرآن ، لذلك جاءت الآيات التالية تُقَدِّم البراهين المقنعة على وجود اللَّه :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣ ـ ٥) .

منهج خاص للإقناع بوجود اللّه انفرد به القرآن عن الكتب السماوية السابقة ، وذلك بلفت الأنظار إلى الكون : سمائه وأرضه ، وما على الأرض من مظاهر الحياة الحيوانية والنباتية ، التي لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن توجد صُدفة ، بل إن ما فيها من دقائق الصُّنع ، ووجوه الحكمة ، ليدل على صانع حكيم ألا وهو اللّه سبحانه .

وكثير من العلماء الكونيين اعترفوا بأن إيمانهم باللّه حصل من خلال دراساتهم أسرار هذا الكون ، وما انطوى عليه من أعاجيب تبهر العقول . فاللّه يقول : ﴿ إِنَّ في السَّمَاوَات وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤمِنِينَ ﴾ وتقدير الكلام في الآية : إن في خلق السماوات والأرض دلائل وعلامات للذين يؤمنون بوجود اللّه ووحدانيته . فالسماوات تحتوي على بلايين النجوم وغيرها من الأجرام السماوية ، والأرض تحتوي على سهول وجبال ووديان وبحار وأنهار ومعادن مختلفة ، ومخلوقات حية ، وإن في كل ذلك ﴿ لآيَاتٍ لِلْمؤمنين ﴾ الآيات : جمع آية وهي العلامة الواضحة ، ولقد سمى اللّه خلق السماء والأرض آيات لأنها علامات على وجود الخالق ، فهذه الآيات على مرأى جميع الناس ، ولكن لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيفت للمؤمنين لأنهم هم الذين يستشعرون يد القدرة الإلهية عند التأمل في خلق السماء والأرض وما فيهما من عظمة الإبداع الإلهي .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَفي خَلْقِكُمْ ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس وما تحتويه أجسامكم من عقل وحواس ، وأجهزة مختلفة ، كالجهاز الهضمي والتنفسي والعظمي والعصبي والتناسلي وغير ذلك مما يتكون منه الإنسان ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي ما نشره اللّه وفرّقه على الأرض من الحيوانات غير العاقلة ، كل

ذلك عقّب عليه القرآن بقوله : ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ أي علامات للذين يريدون أن يؤمنوا إيماناً راسخاً لا شك فيه ، لأن اليقين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبهات ، وقد جاءت هنا لفظة ﴿ يُوقنون ﴾ لأنها واردة في مقام العلم المفضي إلى اليقين .

هذا وإن عالم الحيوان عالم مليء بالأسرار ، فكل حيوان له نظامه الخاص في تكاثره وتحصيل عيشه ، وفي الدفاع عن نفسه ، مما جعل العلماء المتخصصين في سبر معيشة كل حيوان على حِدة يذهلون من تصرفاته القائمة على الحكمة ، ويؤلفون في ذلك المجلدات الكثيرة ، فكل هذه الخصائص لعالم الحيوان لا يمكن أن تنشأ صدفة ، بل تشهد على القدرة الإلهية المبدعة الحكيمة .

ويتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القدرة الإلهية فيقول : ﴿ واخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهار ﴾ أي وإن في اختلاف الليل والنهار آية على وجود اللّه . واختلاف الليل والنهار هما ظاهرتان تنشأان من تأثير دوران الأرض حول نفسها بانتظام ، وهذا الدوران له تأثير على تحركات الرياح التي تنقل بخار الماء من المحيطات إلى أراضٍ بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف ويتحول إلى مطر ؛ والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة . ومن المدهش أن القرآن أشار إلى ذلك عقب ذكره اختلاف الليل والنهار فقال : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيف الرِّيَاحِ ﴾ سمى اللّه المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق من خضار وحبوب وفواكه ، ولولا المطر لظلت الأرض قاحلة لا أثر فيها للحياة .

أما تصريف الرياح فهو تحويلها من جهة إلى جهة ومن حال إلى حال

وفق نظام معيّن ينشأ عنه هطول المطر في الأماكن التي حددها اللّه ، كل ذلك عقّب عليه القرآن : ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ أي علامات للذين يستخدمون عقولهم ويعلمون أن الكون لا بد له من موجد أوجده ، وهذا الموجد هو الله وحده .

والجدير بالذكر أن الآيات القرآنية السابقة التي عددت المظاهر الكونية الدالة على وجود اللّه خُتمت أولاً بقوله تعالى : ﴿ لآيَاتٍ للمؤمنين ﴾ . فإن كان المشاهدون لآيات اللّه الكونية ليسوا من المؤمنين بل من طلاب العلم واليقين لذا خُتمت الآية القرآنية التالية بعد لفت النظر إلى خلق الإنسان وعالم الحيوان : ﴿ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنون ﴾ . أما إذا كان المخاطبون ليسوا من المؤمنين ولا من طلاب العلم واليقين ، فلا أقل أن يكون في رؤوسهم شيء من العقل ليدركوا به أن خلق الكون على هذه الحكمة الفائقة لا يمكن أن يحصل صدفة بدون خالق ولذا ختم اللّه الآيات الكونية بقوله : ﴿ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ فإنكار الخالق لا يمكن أن يحصل إلاّ لمن تخلّى عن عقله واشتط في الكفر والعناد .

ثم تأمل هذه النتيجة التي انتهى إليها القرآن بعد ذكر هذه المقدمة :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) .

أي هذه الآيات التي بيّنت الدلائل على وجود اللّه ووحدانيته يسردها اللّه سبحانه على رسوله محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل ، وهي مشتملة على الحق ، فبأي حديث بعد حديث الله يؤمن به المنكرون لوجود اللّه أو وحدانيته .

وبعد هذه الجولة في ملكوت اللّه تأتي الآيات التالية متوعِّدة الذين يختارون الضلال بدلاً من الهدى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٧ - ٨) .

فالويل والهلاك للذي أنكر الآيات الدالة على وجود اللّه فهو ﴿ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي مبالغٍ في الكذب والإثم ، وعلامة إفكه وإثمه أنه ﴿ يَسْمَعُ آياتِ اللّه تتلى عَلَيْهِ ﴾ أي يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه ناطقة بالحق فلا يستجيب لما فيها من الهدى ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ على كفره ويتمسك به ولا يتزحزح عن موقفه الآثم ثم يمضي ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ على ربه أن يذعن لأمره ونهيه ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ كأن لم يسمع ما يتلى عليه من آيات كتاب اللّه بإصراره على الكفر ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أليم ﴾ والبشارة تكون للخبر السار ولكن البشرى هنا وردت مجازاً في غير موضعه لأنها بمعرض السخرية والتهديد له بعذاب موجع في نار جهنم يوم القيامة .

ويتابع القرآن الكلام عن هذا الصنف من الناس مع التهديد لهم بأشد أنواع العذاب يوم القيامة :

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ولا يُغْني عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَذا هُدىً وَالَّذِين كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (٩ - ١١) .

هذا الكذّاب الأثيم وأمثاله لا يكتفي بالإعراض عن سماع آيات القرآن ، بل يتخذ مما سمعه مادة للسخرية ، فالحياة عند هؤلاء المعرضين عن الحق لا مجال فيها للجد وتقبُّل الحق ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي

عذاب مخزٍ مُذل لهم في نار جهنم .

هـذه الصورة التي يـرسمها القـرآن لهـذا الصنف من النـاس في عهـد النبي ﷺ تتكرر في أيامنا هذه ، فمن النـاس من إذا ذكّرتهم بـآيات القـرآن أعرضوا عنها استكباراً واستهزاءً ، إيثاراً لمـا هم عليـه من الضـلال ، وكثير من المسلمين يسمعون آيات القرآن تقرأ عليهم فلا ينتفعون بهـا ولا تستحوذ على مشاعرهم شأنهم في ذلك شأن من لم يسمع هذه الآيات .

هؤلاء المستهزئون بـآيات القـرآن ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ ولفظة : وراء تحتمـل في اللغة معنى : خلف وأمـام ، واختيار هـذه اللفـظة تبين صـورة العـذاب الذي يحيط بهؤلاء يـوم القيامـة سواء من أمـامهم أو من خلفهم . وجهنم : هي إسم للنار التي يُعذب بها من يستحق العذاب يوم القيامة .

﴿ وَلا يُغْني عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيئاً ﴾ أي ولا ينفعهم ما كسبـوا في الدنيـا من مـالٍ وجاهٍ وولـد ﴿ وَلا مَا اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّه أَوْلِيَاءَ ﴾ أي لن تنفعهم آلهتهم التي عبدوها من دون اللّه ولن ينفعهم رؤساؤهم الذين أطاعوهم في الكفر باللّه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ كما أن لهؤلاء عذاباً مؤلماً لا يحد .

﴿ هَذَا هُدىً ﴾ أي هذا القرآن يهـدي من اتبعه وعمـل به إلى الـطريق القويم ﴿ والَّذين كَفَـروا بِآيَـاتِ رَبِّهِم ﴾ والذين جحـدوا بما في القـرآن من الآيـات الدالـة على الحق ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْـزٍ أَليم ﴾ والرجـز هو أشـد العـذاب ، ولفظة أليم تـأكيد لهـذا العذاب المـوجع الـذي سيقاسـونه يـوم القيامة .

وبعد هذا التهـديد للكـافرين تـأتي الآية التـالية مـذكّرة بنعم اللّه على الإنسان التي يجب أن تُقابل بالشكر لا بالجحود والنكران :

﴿ اللَّهُ الَّـذي سَخَّر لَكُمُ البَحْـرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيـهِ بِأَمْـرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾ (١٢) .

سخّـر : ذلل وأخضـع ، فالله خلق البحـار وطوّعهـا لخدمـة الإنسـان وذللهـا لمنافعـه ، فجعلها صـالحة للمـلاحة وذلـك بما أودع في المـاء من خصائص استغلها الإنسان في صنع السفن التي تخوض عباب المـاء بإذنـه سبحانه ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ والابتغاء هو الطلب ، والفضل هو الخيـر ، أي ولتطلبوا خيرات اللّه التي أودعها اللّه في البحر .

والبحـر مصدر القـوت الأسـاسي لكثيـر من الشعـوب التي تعتمـد في غـذائها على أحيـائه ، كمـا أن البحر يعتبـر من أهم طرق المـواصـلات ، بالإضافة إلى ما يستخرج منه من أدوات الزينة كاللؤلؤ والمرجـان ، وما فيـه من متعة للإنسان بالاستحمام به في أيام الحر . ويعقّب القرآن على منافـع البحـر بقولـه : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ أي كي تشكـروا ربكم على تسخيـر البحر لكم ، وتشكروه عند كل منفعة تنالونها من البحـر ، فتعبدوه وتـطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

وبـالإضـافـة إلى البحـرّ فقـد سخّـر اللّه لـلإنسـان مـا في السمـاوات والأرض :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرون ﴾ (١٣) .

فاللّه سبحانه سخّر للناس جميعاً مـا في السماوات من شمس وقمـر ونجوم ، وسخّر لهم ما في الأرض من حيوان ونبـات وجبال وسهـول وأنهار وبحـار ، لقد سخـرها اللّه ﴿ جَميعـاً مِنْه ﴾ أي هي جميعـاً منه سبحـانه ،

ومخلوقة منه تفضّل بإنعامها عليكم أيها الناس ، فلا تجعلوا له شريكاً في العبادة ، فإنه لا إلّه لكم سواه .

فالآية : ﴿ وَسَخَّر لَكُم مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْض ﴾ هي توجيه للمؤمنين بأن يستغلوا كل طاقاتهم في عمارة الأرض ، وتحسين مستوى معيشتهم بشتى الأساليب التقنية ، والطرق العلمية ، التي تعود عليهم بالنفع في شتى مجالاتهم الصناعية والعمرانية والحضارية . فدين الإسلام ليس دين رهبانية وتواكل ، وانقطاع عن ملذات الحياة المشروعة ، كما أنه ليس بدين مخدر للشعوب كما يزعم دعاة المادية .

وإن النهضة الحضارية التي قامت في القرن العشرين تتوافق مع توجيهات الإسلام هذه التي نوهنا بها ، فقد سخّر الإنسان السماء لمنفعته بواسطة ما استحدث من مخترعات ألهم اللّه الإنسان لصنعها كالطائرات والأقمار الصناعية والمركبات الفضائية ، كما سخر الأرض لمنفعته بواسطة الآلات الحديثة سواء أكان في ميدان الزراعة حيث تضاعف الإنتاج الزراعي ، أم في الحفريات التي قام بها الإنسان في جوف الأرض وحصل بذلك على المعادن والنفط في سبيل منفعته ، فكل ذلك من توجيهات الإسلام التي تقاعس عنها المسلمون وسبقتهم إليها الأمم الأخرى . ثم يختم اللّه الآية السابقة التي نحن بصددها : ﴿ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ أي إن في تلك الأمور علامات ودلالات للذين يتفكرون في بدائع صنع اللّه فيستدلون بها على وجوده ووحدانيته .

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ
فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ
لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ

شرح المفردات

يَغفروا : يعفوا ويصفحوا .
لا يرجُون أيَّام اللّه : لا يأملون ثواب اللّه .
ليَجْزيَ : ليحاسب ، فيثيب أو يعاقب .
الكتاب والحكم : التوراة ، والفصل بين الناس في الخصومات .
وَفضلناهم على العالمين : وفضلهم الله على أهل زمانهم .
بيِّنَاتٍ مِنَ الأمر : شرائع واضحة في الحلال والحرام .
بغياً بينهم : ظلماً وحسداً بينهم .
يقضي : يحكم ويفصل .
شريعةٍ مِنَ الأمر : منهاج واضح من أمر الدين .
لن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّه شيئاً : لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب اللّه .
أولياء : أصدقاء وأنصار وأحباب .

وَلِيِّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

شرح المفردات

هَذا بَصَائر للنَّاس : هذا القرآن يبصّر للناس الحق من الباطل ويعرفهم سبيل الرشاد .

اجْتَرحُوا السيئات : عملوا الذنوب .

سَواء : متساوين .

خَتَمَ عَلَى سَمعْه : طبع اللّه على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ولا يفهم الهدى .

وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غشاوةً : جعل على بصره غطاءً حتى لا يبصر الرشد .

أفلا تذكَّرُون : أفلا تتعظون .

تابع سُورَة الجَاثِيَة

ويتابع القرآن فيدعو المؤمنين إلى العفو والصفح عمن يسيئون إليهم من الذين حُرموا نعمة الإيمان ولم يدركوا عظمة القدرة الإلهية التي بيدها الثواب والعقاب :

﴿ قُلْ لِلَّذين آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِين لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ ﴾ (١٤ ـ ١٥) .

فاللّه سبحانه يخاطب رسوله محمداً : قل للمؤمنين الذين صدّقوا بوجود اللّه واتبعوا دينك أن يصفحوا عن الأذى الذي أصابهم من الذين ﴿ لا يَرْجُونَ[1] أَيَّامَ[2] اللّه ﴾ أي لا يأملون ثواب اللّه ونصره لعباده الصالحين ، وذلك ناشىء من عدم إيمانهم بوعد اللّه ، أو بمعنى : لا يخافون عقاب اللّه لأعدائه ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ليجزي الكفار بما عملوا من السيئات كما أنه سيجزي المؤمنين بما عملوا من الحسنات .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي من عمل من عباد اللّه بطاعته وانزجر لنهيه فلنفسه عمل ذلك العمل الصالح لأنه خلّص نفسه من عذاب اللّه ، واللّه غني عن عمل كل إنسان ، ومن أساء عمله في الدنيا

---

(١) لا يرجون : الرجاء توقع الشيء وفيه مسرّة ، ويأتي الرجاء بمعنى الخوف .

(٢) أيام اللّه : اليوم زمن مقرون به حدث من الأحداث قَلَّ أو كَثُر ، فيأتي اليوم بمعنى النقمة على العصاة كأيام اللّه مع عاد وثمود ، ومن هذا القبيل قولهم : أيام العرب أي حروبهم ووقائعهم ، ويأتي اليوم بمعنى النِعَم التي يسبغها اللّه على عباده .

فعصى ربه فعلى نفسه جنى لأنه بذلك أسخط ربه ولم يضر أحداً سوى نفسه ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُون ﴾ ثم أنتم أيها الناس تصيرون من بعد مماتكم إلى ربكم فيجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

ثم تنتقل بنا السورة إلى الحديث عن بني إسرائيل حين خصهم اللّه في الماضي بكثير من النبوات ، ولكنهم اختلفوا في مضمونها :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ الكِتَابَ وَالحكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ القِيامَةَ فِيمَا كَانوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦ ـ ١٧) .

فاللّه أعطى بني إسرائيل (الكِتَابَ) وهو التوراة ، وأعطاهم بعد ذلك الإنجيل ، كما أعطاهم (الحُكْمَ) يعني الفهم بالكتاب ، ومعرفة أحكام اللّه فيه . وقيل معنى الحكم : العلم بفصل الخصومات بين الناس والقضاء ، فقد كان منهم قضاة كثيرون . كما أن اللّه جعل فيهم أنبياء كثيرين ، ورزقهم اللّه من طيبات الأرض من الثمار والأطعمة والمنّ والسلوى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ أي فضّلهم اللّه على سائر الناس الذين كانوا في زمانهم حيث خصّهم بالشريعة الإلهية ، كما أن اللّه أعطاهم ﴿ بيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ ﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام ، ولكنهم اختلفوا في أمور دينهم .

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إلاّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم ﴾ أي ما وقع الخلاف بينهم في أمور الدّين إلاّ من بعد أن جاءهم العلم بحقيقة الدين وأحكامه ، وهذا الخلاف كان بسبب البغي بينهم ، والبغي يطلق على

الظلم والتكبر والحسد ، أي ان اختلافهم كان تجاوزاً عن الحق وظلماً وتحاسداً ، وحبًّا للرياسة والسلطة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي إن اللّه يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين بعد العلم بحقيقته .

وبعد أن انتهت النبوّة في بني إسرائيل بسبب ظلمهم يبيّن اللّهُ أنه جعلها في رسوله محمد ﷺ حيث خصّه سبحانه بشريعة تبين الحق الذي اختلف فيه الناس وتردُّهم إلى جادة الصواب :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِين لا يَعْلَمُون . إِنَّهُم لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ المتَّقِينَ . هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١٨ ـ ٢٠) .

فاللّه يقول : ثم جعلناك يا محمد على طريقة ومنهاج من أمر الدين وهي ملة الإسلام فاتبع هذه الشريعة، ولا تتبع أهواء الجهّال كالمشركين وغيرهم من طوائف اليهود . فالقضية واضحة لا لُبْسَ فيها وهي أمران لا ثالث لهما ، فإما اتباع شريعة اللّه التي تعتمد على الحق والعدل ، وإما اتباع أهواء الذين لا يعلمون الذين يعتمدون على نزوات النفس، ولا يراعون الحق والعدل . ويتابع القرآن مخاطبة النبي : ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنوا عَنْكَ مِنَ اللَّه شَيْئاً ﴾ أي أن هؤلاء الجاهلين بربهم لن ينفعوك يا محمد إن أنت اتبعت أهواءهم وخالفت شريعة ربك ، ولن يدفعوا عنك عقاب اللّه إن هو عاقبك إذا اتبعت أهواءهم ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمينَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ والوليُّ للمرء هو المحب والصديق والنصير ، فالظالمون فيما بينهم هم أصدقاء

وأنصار وأحباب لبعضهم البعض ﴿ واللَّه وَلِيُّ المتَّقِينَ ﴾ واللَّه ناصر ومعين المؤمنين الذين اتقوا ربهم ، واتقاء اللَّه هو تجنب عذابه وذلك بالعمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه . ولا بُدَّ من الإشارة إلى ما توحي هذه الجملة ﴿ واللَّهُ وَلِيُّ المتَّقِينَ ﴾ من دلالات في التوجيه ، فإن فيها إيحاءً للنبي وللمؤمنين بأنه إذا كان الظالمون يتناصرون بينهم ضد النبي وضد المؤمنين وضد شريعة اللَّه فلا يَدَعُوا الوهن والخوف يتسرّب إلى نفوسهم لأن اللَّه معهم وناصرهم ومؤيدهم ، ومن كان اللَّه معه فلن يُغلب أبداً .

﴿ هَذَا بَصَائِرُ للنَّاس ﴾ فاللَّه يقول : هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد هو بصائر للناس يبصرون به الحق من الباطل ، ويعرفون به سبيل الرشاد . والبصائر : جمع بصيرة ، وهي نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به يبصر ، والمعنى المجازي للبصيرة : البيان ، والحجة الواضحة ، والعبرة يعتبر بها . فالقرآن بما فيه من البيانات الشافية ، والحجج الواضحة بمنزلة البصائر في القلوب ، كما أن القرآن ﴿ هُدىً ﴾ أي رشاد للذين يتخبطون في الضلالة ، وهو أيضاً ﴿ رَحْمَةٌ ﴾ لهم بما فيه من مبادىء العدالة والخير ﴿ لقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ واليقين هو العلم الذي لا يتطرق إليه شك ، وإذا أيقن الإنسان بخصائص القرآن هذه تمسك به ، وسار على هديه ، فكان له نوراً في ظلمات هذه الحياة .

ثم يُبيّن القرآن أن المؤمن لا يتساوى مع الكافر لا في هذه الحياة ولا بعد الممات :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) .

فاللَّه يقول : أيظن الذين اكتسبوا السيئات من الأعمال في الدنيا

وكذبوا رسل اللَّه وخالفوا أمر ربهم وعبدوا غيره أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا باللَّه وصدقوا رسله وعملوا الصالحات من الأعمال ، كلا ! ما كان اللَّه ليجعلهم كذلك ﴿ سَواءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ ﴾ فاللَّه لا يسوي بين الكافر والمؤمن في الحياة وما بعد الموت . ففي الحياة نرى المؤمن منشرح الصدر ، مطمئن الضمير ، يعمل الصالحات التي ينعكس خيرها على المجتمع ، بينما المسيء نراه مظلم القلب ، مضطرب النفس ، تكون أعماله شراً على مجتمعه ، واللَّه سيُعلي شأن المؤمن في الآخرة كما أنه سيخزي المسيء ، وكل نفس ستجزى بأعمالها يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي سَاء حُكم الكافرين في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين ، ولقد ميّز اللَّه بين الفريقين فجعل المؤمنين في جنات النعيم ، والكافرين في النار .

وتسوية المؤمن بالكافر هو ظلم ؛ والسماوات والأرض قامتا على الحق كما تصرّح بذلك الآية التالية :

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٢) .

فاللَّه يقول إنه خلق السماوات والأرض بالحق ، ومن الحق أن يكون الوضع مختلفاً في الحكم على كلٍ من المسيء والمحسن . واللَّه يجزي كل إنسان بما عمل : المحسن بالإحسان ، والمسيء بالعقاب ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي بنقص في ثواب المحسن ولا يزاد في عقاب المسيء .

ولا بد من التمهل قليلاً عند كلمة « الحق » فاللَّه سبحانه حين قال : إنه خلق السماوات والأرض بالحق فما ذلك إلّا ليبين أن قانون الحياة كله قائم على الحق ، وكل من أراد أن يتجاوزه كان ذلك خروجاً على طبيعة

الكون . والجدير بالذكر أن القرآن ذكر كلمة الحق في كثير من الآيات ، فرسالة محمد قائمة على الحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (البقرة : ١١٩) .

والقرآن قائم على دعوة الحق : ﴿ وَبِالحقّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء : ١٠٥) .

ورسل اللَّه جاءت شرائعهم من اللَّه بالحق ﴿ لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحق ﴾ (يونس : ٣٢) .

والقرآن وصف اللَّه سبحانه بأنه الحق : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ ربُّكُم الحق ﴾ (الأعراف : ٤٣) . ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحق ﴾ (طه : ١١٤) وكل معبود سواه هو الباطل .

واللَّه أمر بالحق عند الفصل في المنازعات : ﴿ يا داودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرْض فاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بالحق ﴾ (ص : ٢٦) .

وكلمة « الحق » هي نقيض الضلال كما هي نقيض الباطل وليس بينهما صلة وصل وارتباط ﴿ فماذا بَعدَ الحقِّ إِلاَّ الضلال ﴾ (يونس : ٣٢) . ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ﴾ (الإسراء : ٨١) .

هذه هي نظرة الإسلام إلى الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض ، فمن تمسك به فاز ومن أعرض عنه كان في خسران كما صرحت بذلك (سورة العصر) .

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

شرح المفردات

وما يُهلكنا إلاّ الدَّهر : وما يميتنا إلاّ مرور السنين والأيام .

المبْطلون : السائرون على طريق الباطل .

أُمَّة : مجموعة من الناس تربطهم لغة أو ملة .

جاثية : جالسة على الركب .

إنّا كُنَّا نَستنسخ : أي إن اللَّه يأمر الملائكة أن تكتب .

فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا
وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

وَعْدَ اللَّه حق : أي ما وعد اللَّه من حصول البعث هو كائن حقاً .
والسَّاعة لا ريب فيها : والقيامة لا شك في وقوعها .
وبدا لهم سيئات ما عملوا : وظهر لهم جزاء السيئات التي عملوها في دنياهم .
وَحَاقَ بهم : نزل بهم وأحاط .
هُزُواً : سخرية .
مَأْواكُمُ النَّارُ : مسكنكم ومستقركم .
غَرَّتْكُمُ الحياةُ الدنيا : خدعتكم بأباطيلها وزخارفها .
يُسْتَعْتَبونَ : أي لا يطلب منهم أن يُرضُوا ربهم بالتوبة والعمل الصالح .

تابع سُورَة الجَاثِيَة

وبعد أن قررت الآية السابقة اعتماد الحق وهو أصل جوهري في منهج الإسلام تأتي الآية التالية منددة بمن يحيد عن هذا الأصل ويجنح عن الحق إلى اتباع الأهواء إلى حد العبادة :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ على عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ ﴾ (٢٣) .

فاللَّه يقول : أنظرتَ يا محمد حال ذلك الإنسان الذي اتخذ هواه إلهاً له ، فلا يهوى شيئاً ويستحسنه إلا عبده واتخذه إلهاً ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي أضله في سابق علمه ، أو بإضافة العلم للضال ، بمعنى أضله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه بأن عبادة غير اللَّه كفر وضلال .

﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي طبع اللَّه على سمعه فلا يعي ما يسمع من مواعظ ليعتبر بها ، ولا يفكر بما فيها من النور والهدى ، كما طبع على قلبه فلا يعقل به شيئاً ولا يعي به حقاً ، والمراد بالقلب هنا العقل ، وكثيراً ما يذكر القرآن القلب ويقصد به العقل لأنه موطن الإدراك كما في قوله تعالى ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ .

﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَة ﴾ أي وجعل على بصره غطاء فلا يبصر به حجج اللَّه فيستدل بها على وحدانيته ويعلم أن لا معبود سواه ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ فمن يوفقه لاتباع الحق وإدراك الرشد بعد إضلال اللَّه إياهُ وذلك بسلوكه طريق الضلال ﴿ أَفلا تَذَكَّرُون ﴾ أي أفلا تتعظون فتخصّوا ربكم وحده بالعبادة وتتركوا عبادة أهوائكم ، لأن من تذكّر رجع إلى صوابه

فاتبع الحق وترك عبادة الهوى .

والهوى ما يميل إليه الإنسان مما يحب ، فالبعض يميل إلى الشهرة ، والبعض إلى المال ، والبعض إلى النساء ، والبعض إلى حب السيطرة . وإذا سيطر الهوى على النفس هجر المرء طاعة ربه ، وأصبح الهوى معبوده يملي عليه رغباته فيطيعه كما يطيع المرء ربه ، وفي ذلك إفساد للمجتمع ، لأن الهوى[1] يصدر من حب الذات والأنانية المفرطة ، وإذا انقاد الناس إلى أهوائهم وعبدوها من دون اللّه كان ذلك مثار التنازع والضلال ، أما في اجتماعهم على عبادة اللّه وحده التي هي اجتماع على كلمة الحق ومصلحة المجموع فإن ذلك داعٍ إلى توحيد قلوبهم وسلوك الطريق المؤدي بهم إلى سعادتهم .

ثم ينتقل القرآن إلى تفنيد عقيدة راسخة في نفوس كثير من الجاهليين العرب قبل الإسلام الذين كانوا يقولون بتأثير الدهر ، ونكران البعث والخالق والرسل وينسبون حدوث كل شيء إلى فعل الدهر ، وهم الذين أطلق عليهم إسم « الدهرية » وهؤلاء كانوا يضيفون النوازل التي تنزل بهم من موت أو هرم إلى الدهر فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر فاعلاً لكل ذلك فيذمونه ويسبونه ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم .

والمعنى الذي نفهمه من « الدهر » في الشعر الجاهلي هو الأبدية مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم ، ولهذا أضافوا إليه بعض الألفاظ التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة ، فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ،

(١) الهوى يمكن أن يكون مشروعاً إذا ما مال المرء وأحب ما هو مشروع ومباح قال عليه السلام : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

وعدواء الدهر ، وأمثال ذلك من تعابير ، فنسبوا إليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه .

والقرآن يبين أن معتقدات الدهريين قائمة على الظنون والأوهام ، ولا دليل لهم في إثبات معتقدهم :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢٤) .

فهم يقولون : ما هي إلّا حياتنا الدنيا نحياها ، فليس هناك بعث ، ولا حساب ولا جزاء بعد الموت ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي نموت نحن في هذه الحياة ويحيا أولادنا ، أو يموت بعضنا ويحيا البعض ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي وما يهلكنا إلّا مرور الزمان وتعاقب الأيام . فالدهريون يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي ، وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر اللّه . ولو أن الدهر هو الذي يميت الناس لكان ينبغي أن يكون له نظام وأجل محدد يميت الناس فيه ، ولما كان ينبغي أن يموت الأطفال لأن الدهر لم يُجْرِ تجربته عليهم ، وعلى هذا فالدهر بمعنى توالي الأيام لا يصلح سبباً للموت ، ولذا قالت الآية ﴿ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس عندهم لهذه المعتقدات مستند علمي يبنون عليه معتقدهم ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فمعتقداتهم ما هي إلّا مجرد ظنون وأوهام ليس لها من الحقيقة سند .

والرسول محمد ﷺ ناقش معتقدات الدهريين بقوله فيما يرويه عن ربه : « يقول اللّه : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر أُقَلِّب ليله ونهاره » .

فالعرب في جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة

الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو اللّه ، فكأنهم سبوا اللّه لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى الرسول عن سب الدهر بهذا الاعتبار .

وبعد أن عالج القرآن معتقدات الدهريين نقل عن لسانهم أموراً تعجيزية طالبوا بها وناقشهم القرآن بشأنها :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . قُل اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يَجْمَعُكُم إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ (٢٥ ـ ٢٦) .

والمعنى : وإذا قرئت على المشركين والدهريين آيات القرآن وهي واضحات الدلالة على إثبات قدرة اللّه على بعث الأجسام بعد الموت للحساب ، ما كانت الحجة التي يتعللون بها إلّا قولهم أحيوا آباءنا الأموات إن كنتم صادقين أن هناك بعثاً وجزاءً . وهنا يأتي الجواب مفحماً لا يترك مجالاً للرد ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُم ثُمَّ يُمِيتكم ﴾ أي قل لهم يا محمد : اللّه يحييكم في الدنيا من العدم ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم . فطلبهم الذي أعلنوه وهو إحياء آبائهم وإثبات قدرة اللّه هي ظاهرة تشاهد وتتجدد أمام أعينهم كل يوم فلا داعي لإنكار قدرة اللّه ﴿ ثُمَّ يَجْمعُكُم إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي ثم يجمعكم في يوم القيامة أحياء للحساب كما أحياكم في الدنيا ، فالقادر على الإحياء أول مرة قادر على إعادتكم أحياء بعد الموت ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ فأكثر الناس لا يعلمون أن هناك حساباً وجزاءً بعد هذه الحياة .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها تأكيد لوقوع البعث الذي ينكرونه مع وصف بعض مشاهده :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُون . وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَومَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧ ـ ٢٩) .

أي وللّه وحده ملك السماوات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً ، وحين تقوم ﴿ السَّاعة ﴾ أي القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبْطِلونَ ﴾ حينذاك يخسرُ الذين اتبعوا الباطل وأنكروا هذا اليوم . ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثية ﴾ أي وترى يوم القيامة أهل كل دين أو ملة جالسة على الركب من هول الموقف ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدعى إلى كِتَابِهَا ﴾ أي أهل كل دين يُدعون إلى الحساب بموجب صحائف أعمالهم التي سجلتها الملائكة في حياتهم الدنيا ، وقد ذُكر الكتاب مفرداً وأريد به الجنس لأن كل واحد من أفراد الأمة له كتاب خاص فيه سجلُّ أعماله ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي هذا الكتاب الذي فيه سجل أعمالهم يشهد عليهم بما عملوا شهادة صدق ، وقد أضيف الكتاب إلى اللّه وإن كان المراد به كتاب كل إنسان ، لأن اللّه هو مالكه ، وهو الآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال العباد ﴿ إِنَّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ أي أن اللّه كان يأمر ملائكته بكتابة كل ما يعمله الناس في الدنيا من أعمال ليحاسبهم عليها يوم القيامة .

وبعد أن بيّن اللّه أن أعمال كل إنسان مسجلة في كتاب عقّب على ذلك ببيان مصير المؤمنين في الآخرة وما أعد اللّه لهم من ثواب :

﴿ فَأَمَّا الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ في رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٠) .

فاللَّه تعالى يقول : فأما الذين صدّقوا بوجود اللَّه ولم يشركوا به شيئاً ﴿ وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي وعملوا بما أمرهم اللَّه به وانتهوا عمّا نهاهم عنه فيدخلهم ربهم ﴿ في رَحْمَتِهِ ﴾ أي في جنته جزاءً لهم ،وسميت الجنة باسم الرحمة مجازاً لأن الجنة مكان للرحمة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ المبِينُ ﴾ أي أن دخول المؤمن في رحمة ربه وجنته هو الفوز البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه .

أما الكافرون فيضعهم اللَّه في الآخرة أمام واقعهم المؤلم ، ويذكّرهم بما كان منهم في الدنيا من إجرام ونكران للآخرة :

﴿ وَأَمَا الَّذِين كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجرِمينَ . وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ والسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْري ما السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقنينَ ﴾ (٣١ - ٣٢) .

فالذين جحدوا وحدانية اللَّه يقال لهم توبيخاً وتقريعاً : أما قرئت عليكم آيات القرآن فاستكبرتم عن الاستماع إليها والإيمان بها ، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم من الكفر باللَّه ، واقتراف الآثام ، والتكذيب بالبعث ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حقٌّ ﴾ أي وإذا قيل للكافرين إن وعد اللَّه حق ، وهو أنه محيي عباده بعد مماتهم للجزاء ﴿ والسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي والقيامة آتية لا شك فيها ﴿ قُلْتُم مَا ندري ما السَّاعة ﴾ أي قلتم استغراباً واستبعاداً لها : أي شيء هي القيامة ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي لا نعتقد بوقوعها إلّا على سبيل الظن ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقنين ﴾ أي لسنا على يقين من وقوعها .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مصير الكافرين وما أعدّ اللَّه لهم من عذاب دائم في الآخرة :

﴿ وَبَدا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون . وَقِيلَ الْيَومَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ نَاصِرِين . ذَلِكُم بِأَنَّكُم اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ، وَغَرَّتْكُمُ الحَياةُ الدُّنيَا ، فَالْيومَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٣٣ - ٣٥) .

فاللَّه تعالى يقول : وظهر لهؤلاء الكفرة في الآخرة أعمالهم القبيحة ، ونزل بهم من عذاب اللَّه حينئذٍ ما كانوا يسخرون به في الدنيا ﴿ وَقِيلَ اليَوْمَ نَنْسَاكُم ﴾ وقيل لهؤلاء الكفرة : اليوم نهملكم ونترككم في عذاب جهنم ﴿ كما نَسِيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا ﴾ كما تركتم العمل الصالح الذي تلقون به ربكم يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُم اتَّخَذْتُم آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ أي هذا الذي حل بكم من عذاب اللَّه سببه أنكم في الدنيا اتخذتم آيات القرآن سخرية تستهزئون بها ﴿ وَغَرّتْكُمُ الحَياةُ الدُّنْيَا ﴾ وخدعتكم زينة الحياة الدنيا فآثرتموها على العمل بما ينجيكم يوم القيامة من عذاب اللَّه ﴿ فَالْيَومَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي فاليوم لا يستطيع أحد إخراج هؤلاء من النار ﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْبَونَ ﴾ ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم وذلك بأن يردوا إلى الدنيا ليتوبوا ويرجعوا إلى طاعة اللَّه لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة .

وبعد هذا المصير الرهيب للكافرين تختتم هذه السورة بالحمد والتمجيد للَّه رب العالمين :

﴿فَللَّه الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاواتِ وَرَبِّ الأَرْض رَبِّ العالمين . وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٣٦ - ٣٧) .

﴿ فَللَّهِ الْحَمْدُ ﴾ أي الثناء على اللَّه بتمجيده وتعظيمه لنعمه على

خلقه ﴿ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الأرْض رَبِّ العَالمين ﴾ كرر القرآن لفظة الربوبية للّه ثلاث مرات للتأكيد على ربوبيته للكون سمائه وأرضه وإنسه وجنه . والرب يطلق في اللغة على المالك والسيد المطاع والمدبّر والمربي والقيم ولا يطلق غير مضاف إلاّ على اللّه، فربوبية اللّه للكون تستوجب الثناء عليه .

وبعد بيان ربوبية اللّه للكون يأتي بيان الكبرياء للّه ﴿وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ﴾ والكبرياء الترفع عن الانقياد وذلك لا يكون إلاّ للّه وحده ، وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربه : « يقول اللّه تعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري »[1] .

كما أنه سبحانه هو ﴿ العزيز ﴾ أي القوي الغالب الذي يَقهر ولا يُقهر وهو سبحانه ﴿ الحكيم ﴾ والحكمة من اللّه معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ، فهذا الكون أقامه اللّه بحكمته وتدبيره على هذه الحكمة الباهرة الظاهرة في كل مخلوق من مخلوقات اللّه .

ويلاحظ أن السورة قد ختمت بمثل ما افتتحت من وصف اللّه : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ وهذا يضفي على السورة روعةً وجلالاً وتترك الفكر مأخوذاً مبهوراً بعظمة اللّه القاهرة وحكمته الشاملة .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التفسير الكبير للفخر الرازي

تفسير القرآن لابن كثير

تفسير فتح القدير للشوكاني

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد بن محمد العمادي

تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي

تفسير روح المعاني للألوسي

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق

في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .

الفهرس

اسم السورة	رقم الصفحة
سُورَةُ الشورى	٥
سُورَةُ الزُّخرف	٥٠
سُورَةُ الدُّخان	٩٣
سُورَةُ الجاثية	١١٤

هَذَا التَّفْسِيرُ

- يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .
- يُعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بَعيدة عن التطويل الممل وَالإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥